الحب الكبير

فيكتور هوجو



المؤلف

ولد فيكتور هوجو بمدينة بيزانسون بفرنسا عام ١٨٠٢ ، وكان والده ضابطا بالجيش الفرنسى ، ونقل بعد شهرين من مولد ابنه الى جزيرة كورسيكا ومنها الى جزيرة البا ، ثم انتقل بعد ذلك فى سنة ١٨٠٥ الى باريس حيث قضت الاسرة بها ثلاث سنوات وانتقل منها الى نابولى فمدريد . وكان من نتيجة ذلك ان امتلأت مخيلة الصبى الصغير برؤى عديدة ودنيوات مختلفة كان لها اكبر الأثر فى حياته .

وكان قد بلغ الرابعة عشرة من عمره عندما اشترك فى مسابقة شعرية اقامتها الاكاديمية الفرنسية وارسل قصيدة تتالف من ثلاثمائة بيت من الشعر ظفرت باعجاب أعضاء الأكاديمية واكتفت لجنة المسابقة بتسجيل اسمه بين الشعراء وهم فى شك من امر الشاعر الفتى .

وتتابعت قصائده بعد ذلك واصدر مع اخيه الاكبر صحيفة ادبية باسم « المحافظ الأدبى » ونشر فيها العديد من قصصه اثارت اعجاب الجميع بما فيهم الشاعر الرومانسى الكبير شاتوبريان بحيث لقبه بالصبى النابغة .

واصدر اول ديوان له باسم اغانى وقصائد مختلفة فى سنة ١٨٢٢ .

وتزوج فى العام التالى بابنة الجيران « اديل فوشيه » ثم اصدر مجلة (لاموز الفرنسية) كانت فتحا جديداً فى ادب الشعر غيرت معالم الادب الكلاسيكى ولقيت معارضة كبيرة من انصار هذا الادب .

وفى عام ١٨٢٧ نشر اول مسرحية له باسم كرومويل ضمنها مقدمة طويلة سجل فيها بحثا دقيقا وشاملا فى طريقته لمعالجة المسرحية

الرومانسيه ثم اصدر ديوانه المعروف باسم « الشرقيات » وبعدها قصة « آخر يوم فى حياة محكوم عليه بالاعدام » .

وكتب للمسرح مسرحيـــة ماريون دى لورم وانجزها فى ثلاثة اسابيع ولكن الرقابة اعترضت على تمثيلها لانها تتعرض لحياة الملك لويس الثالث عشر ، احد اجداد الملك شارل العاشر الذى كان يحكم فرنسا فى ذلك الوقت ، على انها لم تلبث ان ظهرت على المسرح بعد الانقلاب وفرار شارل العاشر سنة ١٨٣٠ ، ثم ظهرت مسرحية « هرنانى » فاكتسبت شهرة كبيرة وتهافتت الجماهير على رؤيتها تهافتـــا لم يسبق له مثيل . ثم جاءت بعد ذلك رواية « احدب نوتردام » وبعدها مسرحية « الملك يلهو » ومنع عرضها هى الاخرى وظهرت له دواوين شعر عديدة نذكر منها الشرقيات سنة ١٨٢٩ واوراق الخريف سنة ١٨٣١ والاصوات الداخلية سنة ١٨٣٧ والاشعة والظلال سنة ١٨٤٠ والعقوبات سنة ١٨٥٢ والتأملات سنة ١٨٥٦ واسطورة القرون سنة ١٨٥٩ .

ولعب هوجو دورا سياسيا خطيرا فكان مؤيدا لابن نابليون ثم ناصر لويس فيليب وقاوم بعد ذلك سياسة نابليون الثالث ، ونتيجة لذلك صدر قرار بنفيه وظل فى منفاه حتى سنة ١٨٧٠ ، واصدر اثناء ذلك روايته المشهورة « البؤساء » وشكسبير وسير الدهور .

وعاد الى فرنسا بعد هزيمة نابليون الثالث واعلان الجمهورية الثالثة .

وانتخب رئيسا للأكاديمية الفرنسية وعضوا فى المجلس النيابى ، واصبح الشاعر الرسمى للدولة ، وظهرت له رواية جديدة بعنـوان ٩٣ عن الثورة الفرنسية . وعاش آخر ايامه مبجلا ومحترما وتوفى بباريس سنة ١٨٨٥ ، وشيعت جنازته باحتفال مهيب ، ودفن فى « البانتيون » حيث يرقد عظماء فرنسا .

— ١ —

ـ وعندما جاء دور النقيب ليوبولد دوفرنى اتسعت عيناه وهو يحدق فى الحاضرين وقال انه فى الواقع لا يعرف فى حياته حدثا يستحق الاهتمام ، ولكن الملازم هنرى انبرى عندئذ وقال له :

ـ ومع ذلك ، فانك قلت لنا يا سيدى النقيب انك سافرت كثيرا ورايت الدنيا . الم تذهب الى جزر الانتيل والى افريقيا وايطاليا واسبانيا ؟ آه ... ولكن ها هو كلبك الأعرج ايها النقيب !

اجفل دوفرنى ، وافلت السيجار من يده وتحول الى مدخل الخيمة فجاة . كان هناك كلب ضخم يسرع اليه وهو يعرج .

وهرس الكلب سيجار النقيب ، ولم يحفل هذا الاخير بذلك ، اما الكلب فراح يتمسح فيه بذيله ويثب حوله بقدر استطاعته ثم مضى اخيرا فرقد امامه . وتاثر النقيب وراح يلاطفه بيده اليسرى فى حركة آلية وقد ضاق صدره ، ويزيح بيده الاخرى رباط خوذته مكررا :

ـ اهذا انت يا راسك ؟ ... اهذا انت ؟

وصاح يقول اخيرا : ولكن من الذى جاء بك ؟

ـ اذا سمحت لى ايها النقيب ..

وكان الرقيب ثاديه قد ازاح ستار الخيمة منذ لحظات ووقف والدموع تملأ عينيه وذراعه اليمنى ملفوفة فى سترته ، وتمتم يقول اخيرا : اذا سمحت لى ايها النقيب ..

رفع دوفرنى عينيه اليه وقال : اهذا انت يا ثاديه ؟ .. ولكن كيف استطعت بحق الشيطان ؟ .. يا للكلب المسكين ! .. كنت احسبه فى معسكر الانجليز ... اين عثرت عليه ؟

ـ اننى لم اعثر عليه يا سيدى النقيب ، وانما مضيت وبحثت عنه .

نهض النقيب وبسط يده للرقيب ، ولكن يد هذا الاخير بقيت ملفوفة فى سترته . ولم يهتم النقيب بذلك ، وعاد ثاديه يقول :

ــ ذلك اننى رايتك يا سيدى النقيب تفتقد راسك منذ ان فقدناه . والحق اننى اعترف لك انه منذ ذلك اليوم الذى لم يأت فيه كعادته ليشاركنى جرايتى وانا امنع نفسى من البكاء كما لو كنت طفلا .. ولكننى احمد الله على ذلك فاننى لم ابك فى حياتى الا مرتين ، الأولى كانت فى ذلك اليوم الذى ...

ونظر الرقيب الى سيده فى ارتباك واستطرد يقول : والثانية عندما امرنى بلتازار ، ذلك العريف الغريب الاطوار بالفرقة السابعة ان اقشر بصلا .

صاح هنرى وهو يضحك : ولكنك لم تقل لنا لماذا بكيت فى المرة الأولى يا ثاديه .

قال النقيب فى رفق وهو لا يكف عن مداعبة الكلب : لا ريب ان ذلك حين حصلت على لقب اول فارس فى فرنسا ايها العزيز .

ــ كلا ايها النقيب .. اذا كنت قد بكيت فقد كان ذلك ، كما تعرف ، فى اليوم الذى اصدرت فيه الأمر باطلاق النار على بوج جارجال .

غطت ملامح النقيب سحابة واقترب من الرقيب على الفور وحاول ان يشد على يده ، ولكن على الرغم من الافراط فى مثل هذه الحفاوة فقد ابقى ثاديه يده ملفوفة فى سترته ، وارتد بضع خطوات الى الوراء فى حين راح دوفرنى يحدق فيه وفى عينيه تعبير يدل على الكدر . وعاد ثاديه يقول :

ــ نعم يا سيدى النقيب .. نعم .. اننى بكيت فى تلك المرة حقا ، وقد كان يستحق ذلك ... صحيح انه كان أسود اللون ولكن البارود اسود اللون هو الآخر و ... و ...

وكان الرقيب يود طبعا ان يفرغ من تشبيهه الغريب بطريقة مشرفة ، وربما كان هناك شىء فى هذا التشبيه يروق لخياله ، ولكنه

حاول عبثا التعبير عنه . وبعد ان اعيته المحاولة بكل المعانى انسحب فجأة ، كما يفعل القائد حين يفشل فى حصار مكان منيع واستطرد يقول دون ان يحفل بابتسامات الضباط الشبان الذين يستمعون اليه :

ـ هل تذكر ايها النقيب ذلك الزنجى المسكين ، عندما جاء وهو مبهور الانفاس فى نفس اللحظة التى كان فيها عشرة من زملائه هنا ؟ الحق انه كان لابد من تكبيلهم ، فقد كنت انا الذى اتولى القيادة، وقد فك قيودهم هو نفسه لكى يحل محلهم بالرغم من رفضهم ذلك . ولكنه كان صلبا عنيدا .. اوه ، يا له من رجل ! .. كان صلبا حقا .. هل تذكر يا سيدى عندما وقف مكانه مستقيما كما لو كان يهم بالدخول فى حلبة الرقص .. وكلبه .. راسك الموجود هنا بالذات والذى فهم ما نوشك ان نفعل بسيده فهجم على واطبق على عنقى ...

قاطعه النقيب يقول : انت لا تأتى الى هذه النقطة من قصتك يا ثاديه الا وتلاطف راسك بيدك .. انظر كيف ينظر اليك .

قال ثاديه فى قلق : انت على حق .. ان هذا المسكين راسك ينظر الى ... ولكن مالاجريدا العجوز قالت لى ان ملاطفة الكلب باليد اليسرى تنذر بالنحس .

صاح دوفرنى فى دهشة وقد لاحظ لاول مرة اليد الملفوفة فى السترة والاصفرار الذى يكسو وجه ثاديه :

ـ ولماذا لا تلاطفه بيدك اليمنى ؟

اجاب الرقيب وقد ازداد ارتباكه : اذا سمحت لى أيها النقيب ... ذلك انه ... ان لك كلبا اعرج واخشى ان ينتهى بك الأمر الى ان يكون لك رقيب اكتع .

هب النقيب واقفا وهو يصيح : كيف ؟ .. ماذا تقول ايها العزيز ثاديه ؟ .. اكتع ؟ .. ارنى ذراعك .. أكتع ! .. رحماك يا الله ! ..

وراح دوفرنى يرتجف ، فقد فك الرقيب سترته فى بطء وكشف عن ذراعه الملفوف فى منديل مصبوغ بالدم . وتمتم يقول وهو يرفع المنديل فى حذر :

ــ ولكن يا الهى ! .. قل لى ما الذى حدث أيها العزيز .

ــ اوه ان الامر فى غاية البساطة . قلت لك اننى لاحظت اساك وحزنك منذ ان اسر الانجليز الملاعين كلبك .. هذا المسكين راسك ! .. كلب بوج جارجال .. وكان فى هذا وحده ما يكفى ، فعزمت اليوم ان اعود به حتى لو كلفنى ذلك حياتى ، لكى اتناول عشائى اليوم بشهية مفتوحة .. وبعد ان نصحت ماتليه بأن ينظف حلتك جيدا استعدادا لمعركة الغد ، تسللت خلسة من المعسكر وانا لا احمل معى غير سيفى ، وسلكت طريقى خلال الأدغال لكى اصل الى معسكر الانجليز بأسرع وقت . ولم اكن قد بلغت اول الخنادق عندما رايت فى غابة صغيرة ، على اليسار ، جماعة من الجنود الانجليز ، فتقدمت فى حذر لكى استطلع امرهم . ولم يشعر بى احد منهم ، ورايت راسك فى وسطهم ، مربوطا الى شجرة ، فى حين راح رجلان عاريا الصدر كالوثنيين يتقاتلان من اجل كلبك . ولم يلبث راسك ان رآنى فشد الحبل الذى يربطه الى الشجرة بكل قواه بحيث انقطع ثم اسرع الى على الفور . وطاردنى الجميع . وتغلغلت فى الغابة وراسك يتبعنى ، وراحت طلقات الرصاص ترن عند اذنى وراح راسك ينبح ، ولكن لم يسمعه احد منهم لحسن الحظ ، فقد كانوا يصيحون « الكلب الفرنسى .. الكلب الفرنسى » . ولم احفل بهم واجتزت الوغل . وكنت على وشك الخروج منه عندما رايت رجلين من الاعداء امامى فجاة . وتخلصت من احدهما بسيفى وكان فى استطاعتى ان اتخلص من الآخر دون اى شك لو لم تنطلق رصاصة من مسدسه فجاة ... اترى ذراعى الأيمن ؟ .. ولكن لا اهمية لهذا . وهجم الكلب على الرجل وانشب اظافره فى عنقه فهوى الانجايزى مختنقا . كان الكلب قاسيا حقا فى عناقه ، ولكن لماذا

لاحقني ذلك الرجل ملاحقة الفقر للرجل المحتاج ؟ . . واخيرا عاد ثاديه الى المعسكر ومعه راسك . وعزائى الوحيد هو ان الله الرحيم لم يشا ان اشترك فى معركة الغد .

واكتست ملامح الرقيب بسحابة من الكدر لا لشيء الا لأن اصابته ستمنعه من الاشتراك فى المعركة .

وصاح النقيب محنقا : ثاديه ! ..

ولكنه لم يلبث ان اردف فى رفق : كيف بلغ بك الجنون الى حد ان تعرض حياتك للخطر من اجل كلب ؟ .

– لم أعرض حياتى للخطر من اجل كلب يا سيدى النقيب ... انما من اجل راسك .

لانت ملامح دوفرنى تماما فى حين استطرد الرقيب :

– من اجل راسك ، كلب بوج جارجال .

صاح النقيب وهو يرفع الى جبينه : كفى ... كفى ايها العزيز ثاديه .

واردف يقول بعد صمت قصير : هلم بنا واعتمد على ذراعى ... تعال معى الى غرفة الاسعافات .

اطاعه ثاديه بعد مقاومة صغيرة احتراما منه . وكان الكلب قد راح يحك انفه فى جلد الدب السميك الذى يضعه النقيب عند قدميه ، ولكنه عندما رآهما يبتعدان نهض وتبعهما بدوره .

– ٢ –

اثارت هذه الواقعة اهتمام الضباط وفضولهم .

كان النقيب ليوبولد دوفرنى رجلا كريما ، من هؤلاء الرجال الذين يوحى منظرهم بالاحترام المشوب بالاهتمام ، ومع ذلك فلم يكن فيه ما يثير الدهشة فى بادىء الامر ، فقد كان يبدو بارد الطباع لا يأبه لشيء ما . ومع ان شمس البلاد الحارة قد لوحت بشرته فانها لم

تكسبه تلك الحمية فى الحركات وفى الحديث التى تتآلف عند المولدين البيض مع ذلك الفتور الرقيق . وكان يتحدث قليلا ويصغى نادرا ويبدو متاهبا دائما للعمل . كان الأول دائما فوق صهوة الجواد والاخير فى العودة الى الخيمة ، وكان يبدو انه يبحث فى المتاعب الجسدية عن تسلية وترفيه لأفكاره ، تلك الافكار التى حفرت قسوتها الحزينة فى غضون جبينه التى منى بها قبل الأوان . . لم تكن من تلك الافكار التى يتخلص منها المرء ببثها والافصاح عنها ، ولا من تلك التى يتبادلها مع غيره فى حديث عابث . كان ليوبولد دوفرنى الذى لم تستطع المعارك والحروب ان تحطم جسده يشعر بتعب لا يوصف فى تبادل الحديث مع اى شخص . كان يتهرب من المناقشات ويبحث عن المعارك ، واذا انقاد فى بعض الاحيان الى مجادلة كلامية فانه كان ينطق بثلاث او اربع كلمات زاخرة بالمعانى والحكمة ثم لا يلبث ان يتوقف فى اللحظة التى يوشك فيها ان يقنع محدثه ويتمتم « ما الجدوى ؟ » ويخرج لكى يسأل القائد عما يمكنهم ان يفعلوا فى انتظار ساعة الهجوم .

وكان زملاؤه يلتمسون له العذر لطباعه الجافة والمتحفظة ولعزوفه الى الصمت لأنهم كانوا يجدونه فى كل الظروف شجاعا وكريما ومتسامحا . كان قد انقذ حياة الكثيرين منهم معرضا حياته هو للخطر ، وكانوا يعرفون انه اذا كان يفتح فمه فيما ندر فان حافظة نقوده لا تظل مغلقة ابدا على الاقل . كانوا يحبونه فى الجيش ، بل كانوا يغفرون له اجباره على تدلههم به .

ومع ذلك فقد كان لا يزال فى طور الشباب . كان يبدو فى الثلاثين من عمره مع انه كانت لا تزال امامه بضعة اعوام لكى يبلغ هذه السن .

وعلى الرغم من انه كان يقاتل فى صفوف الجمهوريين منذ بعض الوقت ، فقد كانوا يجهلون كل شيء عنه .

كان ثاديه وراسك هما الوحيدان اللذان استطاعا ان ينتزعا منه

بعض مشاعر الود . وكان الرقيب الشيخ الطيب ثاديه قد التحق بالجيش معه ولم يكن يفارقه أبدا . وكان يحكى فى بعض الاوقات بضعة ظروف من حياته . كانوا يعرفون ان دوفرنى قد عانى شقاء كبيرا فى أمريكا وانه تزوج فى سانتو دومينجو وانه فقد زوجته وكل أهله وسط المذابح . وفى ذلك الوقت اثارت مصائبه رثاء الجميع وشفقتهم ، ولكن كان رثائهم لمصائبه اقل بكثير من رثائهم لطريقته فى تألمه منها . والحق انهم كانوا يرون خــلال بروده وعدم اهتمامه اختلاجات جرح داخلى لا يبرأ .

فما ان تبدأ معركة ما حتى يبدو الصفاء على جبينه ويبدى شجاعة فى الحرب كما لو كان يحاول ان يصبح جنرالا ، ومتواضعا بعـد المعركة كما لو كان لايبغى الا ان يبقى جنديا عاديا .

واذ يرى زملاؤه ازدراءه للأمجاد والالقاب لا يفهمون لماذا يبدو كانه يتمنى شيئا قبل المعركة ولا يخطر ببالهم ابدا انه لا يبغى شيئا من اشتراكه فى المعارك غير الموت .

وقد عينه ممثلو الشعب المشرفون على الجيش ذات يوم رئيســا لأحد الالوية ولكنه رفض هذه الترقية لانه اذا افترق عن فرقته تعين عليه ان يفترق فى نفس الوقت عن الرقيب ثاديه . وبعد بضعة أيام تطوع فى حملة عسكرية انتحارية وعاد منها على غير ما كان الجميع يتوقعون . وسمعوه عندئذ يتحسر على الرتبة التى رفضها قائلا : ما دامت مدافع العـدو تأبى الا الابقاء على فلعل المقصلة التى تدق اعناق كل من يرتفعون ويرتقون ترضى بى .

– ٣ –

صاح الملازم هنرى وهو يمسح حذاءه الطويل الرقبة الذى ترك عليه الكلب اثناء مروره بقعة كبيرة من الوحل :

– اراهن ان النقيب لا يرضى ان يستبدل قائمة كلبه المكسورة

بصناديق النبيذ العشرة التى رايناها منذ ايام فى سيارة الجنرال .

قال المرافق بسكال : انها لتكون صفقة خاسرة ، فان الزجاجات قد اصبحت فارغة الآن ، وانا على يقين من ذلك .

واردف يقول بلهجة الجد : ولعلكم تتفقون معى على ان ثلاثين زجاجة فارغة لا تساوى حتما قائمة هذا الكلب المسكين . وهى قائمة يمكن على كل حال ان تستخدم قبضة لأحد الاجراس .

اثارت لهجة الجد التى قيلت بها هذه الكلمات الاخيرة ضحكات الجميع ، فيما عدا الضابط الشاب الفريد ، فقد بدا عليه الاستيلاء وقال :

ـ لا ارى ما يدعوكم الى التندر فيما حدث ايها السادة . ان هذا الكلب وهذا الرقيب ، وقد رايتهما مع دوفرنى منذ ان عرفته ، يوحيان بشىء من الاهتمام . ثم ان هذا المشهد ...

قال باسكال وقد احنقه استياء هنرى وسخرية الآخرين : ان هذا المشهد عاطفى جدا .. وكيف لا يكون .. كلب مفقود عاد الى صاحبه ، وذراع مكسورة ! .

قال هنرى وهو يلقى خارج الخيمة بالزجاجة التى افرغها لتوه : انت مخطىء ايها الملازم باسكال ... ان هذا البوج يثير فضولى الى حد كبير .

عاد دوفرنى فى هذه اللحظة ومضى فجلس مكانه من غير ان ينطق بكلمة . كان مستغرقا فى تفكير هادىء ويبدو مشغولا بحيث انه لم يسمع شيئا مما يقال حوله . وكان راسك قد تبعه وقبع عند قدميه وهو ينظر اليه فى شىء من القلق :

ـ اليك كاسك ايها النقيب ... تذوق هذا النبيذ .

قال النقيب معتقدا انه يرد على سؤال باسكال : اوه ، الحمد لله . ان الجرح ليس خطيرا ، وذراعه لم تنكسر .

كان الاحترام غير الارادى الذى يبديه النقيب نحو جميع زملائه سببا فى ان هنرى تغلب على الضحكة التى اوشكت ان تنطلق من بين شفتيه وقال :

ـ ما دمت قد اطمأننت على ثاديه ، وما دمنا قد اتفقنا على ان يروى كل منا احدى مغامراته اختصارا لهذه الليلة التى كتب علينا قضاؤها فى الخيمة فاننى ارجو أيها الصديق العزيز أن تفى بوعدك وأن تذكر لنا قصة كلبك الاعرج وقصة بوج ... ذلك العملاق كما تدعوه ...

وما كان دوفرنى ليقبل ان يتكلم لو لم يضم الجميع اصواتهم الى صوت الملازم ، ولم يسعه اخيرا الا النزول عند رجائهم فقال :

ـ سوف اشبع فضولكم ايها السادة . ولكن لا تنتظروا منى اكثر من قصة صغيرة بسيطة لا اقوم فيها باكثر من دور ثانوى . واذا كان الرباط الذى يربطنى بثاديه وراسك يجعلكم تنتظرون شيئا عجيبا فاننى اقول لكم انكم مخطئون ، وهاندا ابدا .

وساد عندئذ صمت عميق .

وبقى دوفرنى لحظة حالما كما لو لكى يستعيد الى ذهنه احداثا امحت منذ عهد بعيد ، واخيرا بدا يقول فى صوت خافت تتخلله وقفات متكررة .

ـ ٤ ـ

ولدت فى فرنسا ولكننى كنت لا أزال حدثا عندما غادرتها للاقامة فى سانتو دومينجو ، ونزلت عند احد اعمامى ، وهو مستوطن ثرى جدا كان ينبغى ان اتزوج ابنته .

كانت املاك عمى مجاورة لحصن جاليفيه ، ومزارعه تشغل الجزء الاكبر من سهول الاكول .

وهذه النقطة تبدو لكم بغير ذات اهمية ، ولكنها كانت اول اسباب الدمار الذى حل بأسرتى كلها .

كان ثمانمائة من الزنوج يزرعون اراضى عمى الشاسعة ، وكانت الظروف التى يعيش فيها هؤلاء العبيد حزينة يزيد من حدتها

وقسوتها برود سيدهم ، فقد كان عمى من هؤلاء المزارعين الذين حجر الاستبداد والجبروت قلوبهم ، وهم قلة والحمد لله . وكان اقل تردد من قبل عبد من عبيده سببا فى ان يلقى اسوأ عقاب ، وغالبا ما يكون توسط أولاده سببا فى تفاقم غضبه ، ولهذا كنا فى اغلب الاوقات نضطر الى الاكتفاء بتخفيف حدة الآلام التى كنا لا نستطيع اتقاءها .

واحد فقط من هؤلاء العبيد لقى الحظوة عند عمى . كان قزما اسبانيا خلاسيا جاءه من جمايكا ، وكان عمى قد اقام مدة طويلة فى البرازيل واكتسب تقاليد البرتغال وعاداته القائمة على البذخ . وحرص على ان يحيط نفسه بجهاز يدل على مدى ثرائه ... عبيد كثيرون مدربون على الخدمة تمام التدريب كالخدم الاوربيين كانوا يضفون على بيته ومضة الاسياد . ولكى لا ينقصه شىء جعل من القزم مهرجه الخاص مقلدا فى ذلك الامراء الاقطاعيين القدامى الذين كان لكل منهم مهرجه الخاص . ويجب القول ان اختيار عمى كان موفقا تماما فان القزم واسمه « هابيبراه » كان واحدا من هؤلاء البشر الذين يجعلهم تكوينهم الطبيعى اقرب الى الممسوخين والوحوش اذا لم يثيروا الضحك .

وكان عمى يحبه بسبب دمامته النادرة ومرحه الذى لا يتغير . كان كأن هابيبراه هو الأثير لديه فى حين كان يرهق العبيد الآخرين بالعمل طوال النهار . ولم يكن لهابيبراه من عمل آخر الا أن يمشى خلف سيده وهو يحمل مروحة من ريش النعام يطرد بها الناموس عنه . وكان يتناول طعامه وهو جالس عند قدمى عمى فوق حصيرة من الاسل . وكان عمى يعطيه دائما ما يتبقى فى طبقه من طعامه الخاص المفضل ، ولم يكن هابيبراه يستخدم مزاياه كمهرج ويقول ما يعن له ان يقول وان يفعل ما يفعل الا للترفيه عن سيده ، وذلك بآلاف الكلمات المضحكة والمصحوبة بالالتواءات والتقلصات .. وعند اقل حركة من عمى كان يسرع اليه بخفة القرد وخضوع الكلب . ولم

اكن احب هذا العبد ، وكنت احس بشيء من الرثاء نحو اولئك الزنوج التعساء الذين كنت اراهم يكدون ويكدحون طوال النهار ، ولكن هذا المهرج الممسوخ وهذا العبد الكسولى بثيابه المضحكةالمزركشةبالشرائط والزاخرة بالاجراس الصغيرة لم يكن يثير الا احتقارى . ومهما يكن فان هذا القزم لم يكن يستخدم حظوته عند سيده لمنع اذاه وغلظته عن اخوانه العبيد ، ولم يكن يتدخل ابدا حين كان سيده يفرض عقابه عليهم . بل ان بعضهم سمعوه ذات يوم ، وكان يظن انه بمفرده ، وهو يحث سيده لتشديد عقابه لهؤلاء المساكين . وكان يبدو ان العبيد لا يكنون له كراهية ما فقد كان يوحى لهم بنوع من الخوف المشوب بالاحترام والذى لا يمكن ان يشبه الحقد ابدا . وعندما كانوا يرونه يمر بين اكواخهم بطاقيته العريضة المدببة الحافة والمزينة بالأجراس الصغيرة والتى رسم عليها هو نفسه بالحبر الاحمر صورا غريبة كانوا يقولون بينهم وبين انفسهم وفى صوت خافت « انه ساحر » .

هذه النقاط التى الفت نظركم اليها الآن لم تكن تشغلنى الا قليلا فى ذلك الوقت .

فقد كان كيانى كله ينبض وقتئذ بانفعالات حب طاهر يبدو ان ما من شيء يشوبه ... حب عظيم كانت تشاركنى فيه منذ الطفولة المراة التى قدرت لى ، ولم اكن احفل بأى شيء آخر فيما عدا ما يتعلق بمارى . كان حبنا مزيجا من الاخلاص الاخوى والعشق الملتهب والثقة الزوجية .

قليل من الرجال قضوا سنواتهم الاولى اسعد منى .. قليل من الرجال احسوا بأرواحهم تتفتح للحياة تحت سماء اجمل وفى وفاق وتفاهم وسعادة للحاضر وامل للمستقبل كما احسست انا . كنت محاط بكل المزايا التى يتمتع بها السيد فى بلد يكفى للونه فيها ان يحبوه الجميع بكل ما تريد النفس من بهجة وسعادة ، واقضى حياتى بجوار الكائن الذى اكن له كل الحب فى بلد العسف فيها

دائم والطبيعة رائعة . اكنت بحاجة الى اكثر من هذا لكى اثق ثقة عمياء فى نجمى السعيد ، ولكى اقول ان قليلا من الرجال قضوا سنواتهم الاولى اسعد منى ؟

وتوقف النقيب لحظة كما لو كان الكلام قد شق عليه ازاء هذه الذكريات السعيدة .

- ٥ -

استطرد يقول فى صوت اكثر ثباتا :

- وسط هذه الاوهام وهذه الآمال العمياء بلغت العشرين من عمرى .. كان يجب ان تتم هذه الآمال فى شهر اغسطس سنة ١٧٩١، وحدد عمى هذا الوقت لارتباطى بمارى . ولعلكم تفهمون بسهولة ان فكرة هذه السعادة الوشيكة كانت تشغل كل كيانى ، وكل ما عدا ذلك كان غامضا بالنسبة لى ، وخاصة الاحداث السياسية التى كانت تدور فى ذلك الوقت ، فقد كانت الاضطرابات تسود المستعمرة منذ سنين ، وقد اهاجت هذه الاضطرابات الجميع وان كان لا يهتمون الا بالكوارث التى تسببت فيها .

وقد حدث ذات مرة ان اشتركت مشاركة فعالة فى جدل سياسى ، وكان ذلك بمناسبة صدور قرار فى ١٥ مايو سنة ١٧٩١ ساوت فيه الجمعية الوطنية العمومية بين الرجال الملونين والبيض فى الحقوق السياسية ، وفى احدى الحفلات الراقصة التى اقامها المحافظ فى مدينة الكاب تجمع كثير من المستوطنين وراحوا ينتقدون بحماس كبير هذا القانون الذى يجرح كرامة البيض جرحا شديد القسوة ، ولم اكن قد اشتركت فى هذا الجدل بعد عندما رايت مزارعا ثريا يقترب منهم ، وكان البيض يقبلونه بينهم بكل صعوبة لان لونه كان مشكوكا فيه . وتقدمت فجاة نحو هذا الرجل وقلت له فى صوت مسموع :

ـ انصرف أيها السيد فان القوم يقولون عنك اشياء كثيرة بغيضة بسبب الدم المخلط الذى يجرى فى عروقك .

اثارته هذه التهمة الى حد انه طلبنى للمبارزة ، وقد جرح كل منا فى هذه المناسبة ، وكنت مخطئا حقا حين تحديته ، واعترف بذلك ، ومن الطبيعى أن تعصب اللون لم يكن يكفى وحده لكى يدفعنى الى ما فعلت ، ولكن هذا الرجل كان قد تجاسر اخيرا على رفع عينيه الى ابنة عمى ، وفى اللحظة التى امتهنت نفسى فيها بهذه الطريقة غير المتوقعة كان قد فرغ مع مراقصتها .

ولم يكن لى من شاغل يشغلنى الا سعادتى المقبلة بحيث لم الحظ السحابة التى غطت كل افقنا تقريبا ، والتى كان لابد ان تنفجر وتقتلع جميع الكائنات ، وليس معنى هذا ان النفوس ، حتى اشدها هلعا وجزعا كانت تتوقع ثورة العبيد بصفة جبرية ، فقد كانوا يحتقرون هذه الطبقة ولا يخشونها . ولكن كان هنـــــاك فقط ، بين البيض والنخاسين الاحرار ما يكفى من الحقد لكى يتفجر هذا البركان المغلوب على امره منذ وقت طويل ويدمر المستعمرة كلها فى اللحظة التى لم يكن احد يتوقعها منهم .

وفى الايام الأولى من شهر اغسطس المذكور الذى كنت انتظره بكل الأمانى والآمال وقع حادث غريب اضاف الى هذه الآمال الهادئة قلقا لم اكن اتوقعه .

ـ ٦ ـ

كان عمى قد اقام على شواطىء جدول جميل يحيط بمزارعه استراحة صغيرة من اغصان الشجر وسط دغل صغير كانت مارى تذهب اليه كل يوم تستجم فيه وتستنشق نسمات البحر الحلوة التى تهب بانتظام طوال شهور السنة الحارة علىجزيرة سانتو دومينجو من الصباح حتى المساء والتى كانت برودتها تزداد وتنخفض حسب حرارة اليوم نفسه .

وذات صـــباح جاءتنى مارى وهى تنتفض ذعرا ، فقد دخلت الاستراحة المخضرة كعادتها ، وهناك رات لدهشتها البالغة وفزعهـا الشديد كل الزهور التى كنت قد جمعتها وفرشت بها الخلوة فى صباح اليوم نفسـه قد انتزعت مكانها وديست بالاقدام ووضع مكانها باقة من الاقحوان البرى يدل مظهرها على انها قطفت حديثا ، فى نفس المكان الذى اعتادت الجلوس فيه وسمعت انين قيثـــارة ياتى من الدغل الذى يحيط بالاستراحة ، ثم صوتا غير صوتى راح يغنى فى نغمة رقيقة اغنية باللغة الاسبانية ، كما بدا لها لم تفهم منهـــا شيئا لفرط قلقها ، فيما عدا ان اسمها تكرر فيها كثيرا . وعندئذ اسرعت بالهرب ، وبحسن الحظ لم يعقها شىء عن ذلك .

ملأتنى هــذه القصـــة غضبا وغيرة وتركزت تخميناتى الاولى على النخاس الذى تشاجرت معه اخيرا . وطمانت مارى المسكينة وعاهدت نفسى على السهر عليها دون انقطاع حتى اللحظة القريبة التى يسمح لى فيها بان اذود عنها بطريقة اكثر فعالية .

وحدست ان ذلك السفيه لن يقتصر على هذه المحاولة الاولى لكى يطلعها على ما خمنت انه حبه فترصدت فى نفس الليلة بجـــوار المسكن الذى تقيم خطيبتى فيه ، بعد ان اخلد الجميع الى النوم واختبات بين اعواد القصب وخنجرى فى يدى وانتظرت . ولم يضع انتظارى سدى ففى نحو منتصف الليـــل ارتفعت مقدمة موسيقية حزينة وخفيفة قطعت حبل الصمت ، على بعد خطوات منى وأثارت اهتمامى فجاة . وهزنى هــذا الصــوت هزة كبيرة ، فقد كان صوت قيثارة ، وتحت نافذة مارى بالذات . وتملكنى الغضب فاندفعت نحو المكان الذى يصدر منه الصوت محطما تحت قدمى ســـيقان اعواد قصب السكر وشاهرا خنجرى فى يدى . وفجاة احسست بشخص يمسكنى ويطرحنى ارضا فى قوة عجيبة وينتزع خنجرى من يدى فى عنف ورايت الخنجر يلمع فوق راسى ، ورايت فى نفس الوقت عينين تتالقان فى الظلام على مقربة من عينى وصفين من الاســنان

البيضاء انفتحتا وقال صاحبهما فى غضب : انك وقعت فى يدى .. انك وقعت فى يدى .

كانت الدهشة التى المت بى اكثر من الفزع الذى اعترانى ورحت اناضل خصمى فى صمت . واوشك الخنجر ان يمزق ثيابى عندما بدت مارى عند النافذة وقد ايقظتها صوت القيثارة والعراك . وعرفت صوتى ورات وميض الخنجر فاطلقت صيحة فزع وخوف . وشلت صيحتها المذعورة يد غريمى فتوقف كالمذهول ، كما لو انه وقع تحت سحر واخذ يحرك الخنجر بضع مرات فوق صدرى مترددا ثم القى به بعيدا وهو يقول : كلا ، كلا ... انها ستبكى كثير .

واذ فرغ من هذه الكلمات الغريبة اختفى بين الاغصان قبل ان اتمكن من الوقوف . فقد شلت هذه المعركة الغريبة غير المتكافئة قواى لبضع لحظات ولم يبق اى صوت ولا اى اثر لوجوده او مروره .

ويتعذر على ان اقول ما مر بى فى هذه اللحظة التى افقت فيها من دهشتى الاولى بين ذراعى محبوبتى مارى التى ابقانى لها ذلك الذى يبدو انه يريد ان ينافسنى فيها . وازداد سخطى وغضبى من هذا الغريم غير المتوقع ، واحسست بالخجل لأننى ادين له بحياتى .

فقد كان هناك بعض الكرم فى الاحساس الذى دفع غريمى المجهول للابقاء على ، ولكن من يكون هذا الغريم ؟ .. انتابتنى الشكوك ، وهى شكوك اخذت تتبدد الواحد بعد الآخر . لا يمكن ان يكون هو ذلك المزارع الخلاس الذى اشارت اليه غيرتى فى بادىء الامر ، فانه لم يكن يملك مثل هذه القوة الهائلة ، ثم ان الصوت لم يكن صوته . ان الشخص الذى تعاركت معه بدا لى عاريا حتى خصره ، والعبيد فقط هم الذين يرتدون بهذه الطريقة ، ولكن لا يمكن ان يكون ذلك الرجل عبدا فان المشاعر التى دفعته الى القاء الخنجر بعيدا لا يمكن ان تصدر من عبد ، ثم ان كل شىء فى كيانى كان يرفض الافتراض المهين فى ان يكون غريمى عبدا ، فمن يكون اذن ؟ ... وقررت ان انتظر وان اترقب .

كانت مارى قد ايقظت المربية العجوز التى تقوم لها بمقام الأم التى فقدتها وهى لا تزال فى المهـــد . وقضبت بقيـة الليل الى جوارها ، وما ان طلع النهار حتى اطلعت عمى على هذه الاحداث الغامضة . وكانت دهشته بالغة ، ولكن كبرياءه ابت ان يكون عاشق ابنته المجهول عبدا ، وهو الامر الذى افترضته انا . واصدر اوامره للمربية الا تفارق مارى ابدا ، وسمح لى بمرافقة مارى فى كل نزهاتها حتى يوم زفافنا ، وكان قد تحدد فى يوم ٢٢ اغسطس .

وامر فى نفس الوقت ان توضع حراسة شديدة على اسوار املاكه ليلا ونهارا معتقدا ان العاشق لم يات الا من الخارج .

وبعد اتخاذ هذه الاحتياطات رايت ، بالاتفاق مع عمى ان اقـوم بتجربة فمضيت الى الاستراحة على شاطىء النهر واصلحت فوضى الأمر ، واعدت تجميلها بالزهور كما اعتدت ان افعل من اجل مارى .

وعندما حانت ساعة ذهابها اليها كالمعتاد تسلحت بفدارتى بعد أن حشوتها وعرضت على ابنة عمى ان ارافقها حتى الاستراحة ، وتبعتنا المربية العجوز .

ولم اكن قد اخبرت مارى اننى رتبت الاستراحة واخفيت الآثار التى افزعتها بالأمس . وسبقتنا هى الى الدخول ، وما كادت تفعل حتى قالت :

ـ ارايات يا ليوبولد ؟ .. ان الاستراحة ما زالت فى نفس حالة الفوضى التى تركناها بهـا بالأمس . وها هى زهورك التى انتزعت وذبلت .

واردفت تقول وهى تاخذ باقة من الأقحوان البرى ملقاة على المقعد : وان ما يدهشنى هو ان هذه الباقة البشعة لم تذبل منذ الامس . انظر ايها الصديق العزيز ... انها تبدو كما لو كانت قد قطفت منذ لحظات .

وكنت قد تسمرت مكانى لفرط ما انتابنى من دهشة وغضب . والواقع ان عملى الذى انجزته فى الصباح كان قد دمر تماما ، وهذه الزهور الحزينة التى ادهشت نضارتها مارى كانت قد وضعت بكل وقاحة مكان الزهور التى قطفتها فى الصباح .

وقالت مارى وهى ترى اضطرابى : تجمل بالهدوء أيها الحبيب فهذا شيء قد انتهى . ان هذا الوغد لن يعود الى هذا العمل دون شك . لنضع كل هذا عند اقدامنا ، وكذلك هذه الباقة البشعة .

ولم اشأ ان اذكر لها الحقيقة اشفاقا من اخافتها . ولم اقل لها ان ما كان يجب الا يقع طبقا لها قد وقع ، وتركتها تدوس باقة الاقحوان بقدميها وهى تتميز سخطا وغضبا بريئين ، ثم اجلستها فى صمت بينى وبين المربية العجوز وانا اقول لنفسى ان الساعة قد ازفت لكى اعرف غريمى المجهول .

ولكننا ما كدنا ناخذ مجلسنا حتى وضعت مارى اصبعها على فمى ، فان بضعة اصوات اوهنها الريح وخرير الماء تناهت الى اذنيها . واصغيت .. كانت هى نفس المقدمة الحزينة البطيئة التى اثارت غضبى فى الليلة الماضية . واردت ان اندفع الى الخارج ولكن مارى منعتنى وهى تقول فى صوت خافت :

ـ ليوبولد ... تمالك نفسك . لعله سيغنى ، ولا شك ان كلماته ستخبرنا بهويته .

والواقع ان صوتا شاكيا تدل نبراته على انه الرجل ارتفع فى نفس الوقت من اعماق الغابة ، ومعه نغمات القيثارة الخفيضة باغنية اسبانية عاطفية رنت فى اذنى بقوة بحيث لا زلت اذكر كلماتها حتى اليوم :

« لماذا تتهربين منى يا ماريا .. لماذا تتهربين منى يا فتاة ؟ .. ولم هذا الخوف عندما تسمعيننى ؟ .. اننى فى الواقع رهيب ولكننى اعرف الحب والعذاب والغناء .

« فعندما ارى صورتك الرقيقة النقية تتسلل خلال سيقان اشجار

وسكت الكلب على الفور وعاد فرقد عند قدمى سيده حيث فرغ من التهام بعض الطعام الحقير . وكنت مرتديا ثيابى العسكرية ، وكان النور المنبعث من نافذة الزنزانة الضيقة ضعيفا بحيث ان بييرو لم يكن باستطاعته تمييز ملامحى .

قال يخاطبنى فى صوت هادىء : اننى مستعد .

واذ فرغ من هذه العبارة قام نصف قومة وعاد يقول : اننى مستعد .

قلت له وقد دهشت وانا اره حرا فى حركاته : كنت اظن انك مكبل بالسلاسل الحديدية .

وكان صوتى يتهدج لفرط الانفعال . وبدا ان السجين لم يعرف صوتى فقد دفع بقدمه بضع بقايا اصدرت رنينا وقال : السلاسل الحديدية ؟ .. اننى حطمتها .

وكان فى اللهجة التى نطق بها هذه الكلمات شيئا بدا كأنه يقول : « اننى لم اخلق لكى اكبل بالسلاسل » . وعدت اقول :

— ولم يقل لى احد انهم تركوا معك كلبا .

— بل انا الذى ادخلته .

ازدادت دهشتى ، فان باب الزنزانة كان مغلقا من الخارج برتاج ضخم ، وكان عرض النافذة لا يزيد عن ست بوصات ، ثم انها كانت مزودة بقضيبين من الحديد . ويبدو انه ادرك ما يجول براسى لأنه نهض بقدر ما سمحت له القبة المنخفضة ونزع دون اى جهد حجرا ضخما تحت النافذة ورفع القضيبين الحديدين المثبتين بهذا الحجر محدثا بذلك فتحة يمكن لرجلين ان يمرا منها بسهولة . وكانت هذه الفتحة تفضى الى غابة من اشجار الموز وجوز الهند تكسو التل الذى شيد الحصن فوقه .

الجمتنى الدهشة . وفجأة سقط ضوء النهار على وجهى بحدة واعتدل السجين كما لو انه وضع قدميه سهوا على ثعبان ، وارتطم جبينه بأحجار القبة وارتسم على وجهه مزيج من المشاعر المختلفة

سمعتها . وتملكتنى رغبة قوية فى ان افرغ من هذا الكائن المجهول الذى تجاسر على اشراك اسم مارى فى اغان غرامية وتهديدات واخذت غدارتى واسرعت خارج الاســــتراحة . وذعرت مارى ومدت يدها لاحتجازى ، ولكننى كنت قد اندفعت الى الغابة حيث جاء الصوت . وفتشت كل ناحية وكل مكان ، واخذت اضرب فى الاحراش بغدارتى وادور بالاشجار الضخمة ، وحركت كل الاعشاب ولكن لا شىء .. لا شىء .. ودائما لا شىء .. وزاد هذا التفتيش وافكارى المشوشة من جراء الاغنية التى سمعتها من ارتباكى وقلقى .

وايقظنى من احلامى صوت جرس فتحولت الى ناحيته ورايت القزم هابيبراه بجوارى .

قال لى وهو ينحنى فى احترام : صباح الخير يا مولاى .

ولكن خيل لى ان فى نظرته الحولاء التى يرمينى بها فى انحراف غريب مزيجا من الخبث والفرح لما يراه من قلق على جبينى .

وصحت به فجأة اقول : تكلم ... هل رايت احدا فى الغابة ؟ .

ــ لم ار احدا غيرك انت يا مولاى .

وعدت اساله : الم تسمع صوتا ؟

بقى العبد لحظة كما لو كان يحاول ان يبحث عن رد ، وكنت اغلى ، فصحت به :

ــ عجل .. أجب حالا ايها الشقى .. هل سمعت صوتا هنا ؟ .

حملق بجراة بعينيه المستديرتين اللتين بدتا اشبه بعينى قطة متوحشة فى عينى واجاب :

ــ ماذا تعنى بصوت يا مولاى ؟ .. هناك اصوات فى كل ناحية وفى كل مكان . هناك اصوات العصافير وصوت الماء وصوت الريح بين الاوراق ...

قاطعته وانا اهزه فى عنف وقلت : ايها المهرج الوقح ... كف عن التلاعب بى والا اسمعتك عن قرب الصوت الذى يخرج من فوهة هذه الغدارة . اجبنى باربع كلمات ... هل سمعت فى هذه الغابة رجلا يغنى باللغة الاسبانية ؟ .

اجابنى دون ان يبدو عليه التأثر : نعم يا مولاى .. وسمعت كلمات من الريح كذلك .. ساخبرك بما هناك ... كنت أتنزه فى الغابة مصغيا الى ما تقوله اجراس طاقيتى فى اذنى . وفجاة انضمت الريح الى هذه الحفلة الموسيقية واضافت بضع كلمـــات بلغة تدعوها انت الاسبانية .. واننى احب هذه اللغة فهى تذكرنى بالوقت الذى كنت فيه طفـلا ولم اكن مجنونا بعد فاقتربت من الصوت وسمعت آخر الاغنية .

قلت فى فروغ صبر : حسنا ... اهذا كل شىء ؟

وفى هذه اللحظة دوت صيحة مخيفة داخل الاســتراحة ... وكانت مارى هى التى اطلقتها فاندفعت واسرعت ، بل طرت طيرانا وانا اتساءل مسبقا وفى ذعر عن المصيبة الجديدة التى لم يكن فى وسعى الا ان اخشاها . ودخلت الاستراحة وأنا الهث ، واذا بى يطالعنى منظر مخيف فقد رايت تمساحا ضخما يختفى نصف جسده فى طين النهر ويمر براسه الهائلة من خلال الـكتل الخشبية التى يقوم فوقها سطح الاستراحة ، وقد فغر فمه الكبير الابيض مهـددا شابا أسود هائل البنية كان يحيط باحدى ذراعيه الفتــاة المذعورة ويغمد بالاخرى فى جرأة نصل حـربته بين فكى الوحش الحادين . وكان التمساح يناضل ، فى غضب ، تلك اليد الجريئة التى توقفـه عند حده . وفى اللحظة التى بلغت فيها عتبة الاستراحة اطلقت مارى صيحة فرح وانتزعت نفسها من ذراع الزنجى واسرعت والقت بنفسها بين ذراعى وهى تصيح :

ـ اننى نجوت !

وعند هذه الحركة منها ، وعند هذه العبارة التى اطلقتها تحول العبد فجاة وعقد ذراعيه فوق صدره المنتفخ ورمى خطيبتى بنظرة اليمة ووقف جامدا دون ان يبدو عليه انه يدرك ان التمساح موجود على مقربة منه وانه تخلص من الحربة ويهم بالتهامه . وكانت نهاية الأسود الشجاع مؤكدة لو لم ادفع بمارى بسرعة واضعها فوق ركبتى

مربيتها العجوز التى تنتفض لفرط الخوف ثم اقترب من التمساح وافرغ رصاص غدارتى فى فمه . وصعق الحيوان على الفور وانقلب على ظهره محدثا صوتا كبيرا وتوترت قائمتاه وقد فاضت روحه .

وحول الزنجى الذى انقذته لحسن الحظ راسه ورای الاختلاجات الاخيرة للتمساح وخفض عينيه الى الارض ثم رفعهما فى بطء نحو مارى التى كانت قد نهضت واسرعت بين ذراعى وقد اطمأنت اذ ابتعد عنها الخطر وخاطبنى قائلا :

ـ لماذا قتلته ؟

وكان صوته يفيض باليأس ، ثم ابتعد فى خطوات كبيرة . دون ان ينتظر منى جوابا وعاد الى الوغل حيث اختفى .

ـ ٩ ـ

ازعجنى هذا المشهد الفظيع وهذه النهاية الغريبة والانفعالات التى سبقتهما وابحاثى غير المجدية وتبلبلت افكارى . وكانت مارى لا تزال تعانى من هلعها بحيث مضى وقت قبل ان نستطيع ان نتبادل افكارنا المضطربة فيما عدا بالنظرات وبضغط الايدى . واخيرا قطعت حبل الصمت قائلا :

ـ تعالى يا مارى ، فلنخرج من هنا ... ان فى هذا المكان شيئا من النحس .

وسألتها عندئذ كيف جاءت هذه النجدة العجيبة من ذلك الرجل الاسود فى ساعة الخطر الفظيع الذى تعرضت له ، واذا كانت تعرف من هو هذا العبد ، لان سرواله الخشن يدل على انه ينتمى الى ادنى طبقة من اهالى الجزيرة . وقالت لى :

ـ لا ريب انه من عبيد ابى ، ولا ريب انه كان يعمل بجوار النهر فى نفس اللحظة التى ظهر فيها التمساح وجعلنى اطلق الصيحة التى

انذرتك بالخطر الذى استهدفت له . كل ما استطيع قوله هو انه وثب من الغابة واسرع لنجدتى .

سالتها : من اية ناحية اقبل ؟

ــ من الناحية المضادة لتلك التى صدر منها الصوت منذ لحظات والتى اندفعت انت نحوها .

قلب هذا الحادث العجيب المقارنة التى لم يسعنى الا ان اقيمها فى ذهنى راسا على عقب ، فان هذا الرجل المديد القامة والذى يتمتع بقوة خارقة كان يمكن تماما ان يكون هو الغريم المخيف الذى اشتبكت معه فى الليلة الماضية . ثم ان صدره العالى يكاد يكون دليلا قاطعا على ذلك فان المغنى قال انه ملك ولم يكن هذا الرجل غير عبد ، ولكننى تذكرت فى شىء من الدهشة سمات الخشونة والجبروت المرسومة على وجهه وسط العلامات المميزة لجنسيته الافريقية ، ووميض عينيه وبياض اسنانه مع بشرته السوداء اللامعة ، وجبينه العريض ، وهو شىء مدهش فى اى رجل اسود ، ونفخة الانتصار التى تعطى لثخانة شفتيه ومنخريه شيئا من الانفة والعظمة ، ونبل هيئته ووسامة تقاطيعه التى تدل على نمو هرقلى على الرغم مما اصابها من نحول وذل نتيجة لعمل يومى مرهق . وتخيلت المنظر الرهيب لهذا العبد فى مجموعة وقلت لنفسى انه يمكن ان يتناسب تماما مع ملك ، وعندئذ جمعت احداثا كثيرة وربطت بينهما وتوقفت ظنونى برعشة من الغضب على هذا العبد الوقح ، واردت ان ابحث عنه لمعاقبته ولكن لم تلبث ان عادت حيرتى الى . هل يجب ان ابنى اتهامى الخطير على مثل هذه الحجج الواهية فاسلم هذا العبد الى عمى لكى ينتقم لكبريائه رغم انه عرض نفسه للخطر لانقاذ مارى .

وفى نفس اللحظة التى ثارت فيها افكارى هذه ضد غضبى بددتها مارى تماما بان قالت فى صوت رقيق :

ــ اى حبيبى ليوبولد . . . اننا ندين لهذا الزنجى الشجاع بالعرفان والجميل ، فلولاه لكنت الآن من الهالكين ، ولأتيت انت بعد فوات الأوان . .

كان لهذه الكلمات الرقيقة اثرا قاطعا .. فهى لم تغير رغبتى فى البحث عن العبد الذى انقذ مارى ولكنها غيرت الغرض منه ، فقد كنت اريد البحث عنه لمعاقبته واصبحت اريد الاهتداء اليه الآن لمكافاته .

وعلم عمى منى انه يدين بحياة ابنته الى احد عبيده ووعدنى بان يمنحه حريته اذا استطعت الاهتـــــداء اليه بين هذا الحشد من البائسين .

- ١٠ -

وحتى ذلك اليوم ، كان الاستعداد الطبيعى لذهنى قد ابعدنى عن المزارع حيث يشتغل الرجال السود ، فقد كان يشـق على ان ارى اناسا فى مقدورى التخفيف عنهم يتعذبون . ولكن منـذ صباح اليوم التالى عرض على عمى ان ارافقه فى ورديته التى يقوم بهـا للتفتيش . واسرعت بالقبـول على أمل ان التقى بين العبيد بمنقـذ محبوبتى مارى .

وقد استطعت ان ارى خلال هذه النزهة مدى تاثير نظرة عمى على هؤلاء العبيد ، وان اعلم فى نفس الوقت ان هذه القوة تشترى بثمن فادح ، فان الزنوج كان يتولاهم الاضطراب امام عمى ويضاعفون من جهدهم ونشاطهم ، ولكن الخوف الذى كان يبدو فى عيونهم كان يشوبه حقد دفين .

وكان عمى بطبعه سريع الغضب ، وكان على استعداد لان يحتـد لانه لم يجد ما يستدعى غضبه فى ذلك اليوم ، عنـدما اثارت ضحكة هابيبراه انتباهه فجاة الى رجل اسود ارهقه التعب ورقد فى اجمة صغيرة بجوار جذع نخلة . واسرع عمى الى ذلك التعس وايقظه من نومه فى غلظة وخشونه وامره ان يعود الى العمـــل فورا . واستولى الفزع على الزنجى فنهض وكشف بذلك عن شجرة

صغيرة من الورد كان عمى قد استوردها من البنجال وراح يتعهدها بنفسه . وجن جنون عمى وهو يرى ان الشجرة قد تلفت ، وكان غضبه لا حد له لما اسماه كسل الزنجى فاذا به يزداد وهو يرى الشجرة التالفة . وخرج عن طوره وفك من حزامه السوط ذى الشعب الحديدية ، وكان يحمله معه دائما اثناء طوافه ورفع ذراعه لكى يهوى بالسوط على الزنجى الذى جثا على ركبتيه طالبا الرحمة . ولم يهو السوط على الرجل ، ولن انسى ابدا هذه اللحظة فان يدا قوية اوقفت يد عمى فجأة ، وكانت هى يد الزنجى الذى ابحث عنه . وصاح صاحبها يقول :

ـ عاقبنى انا لاننى قد اهنتك الآن ، ولكن اصفح عن هذا الرجل فهو لم يلمس غير الشجرة .

هذا التدخل غير المتوقع من الرجل الذى ادين له بحياة مارى . وحركته ونظرته واللهجة الحاسمة فى صوته ، كل هذا اثار دهشنى . ولكن تهوره الكريم بدلا من ان يجعل عمى يشعر بالخجل زاده سخطا وحنقا وحول غضبه من العبد المسكين الى منقذه ، فتخلص من ذراع الزنجى الضخم وهو يعنفه ويتوعده ، ورفع سوطه من جديد لكى يضربه هو به . ولكن الزنجى انتزع السوط من يده فى هذه المرة وحطم قبضته المزودة بالمسامير كما لو كان يحطم عودا من القش ثم داس بقدمه تلك الأداء الحقيرة للتعذيب .

وتسمرت مكانى لفرط الدهشة وتسمر عمى لفرط الغضب .. كان هذا شيئا عجيبا ... ان يرى نفوذه يهان بهذه الطريقة ... واختلجت عيناه كما لو كانتا تريدان الخروج من محجريهما وارتعشت شفتاه الزرقاوان . وتأمله الزنجى لحظة فى هدوء ثم قدم اليه فجاة ، وفى وقار بلطة كان يمسكها فى يده وقال :

ـ ايها الرجل الابيض ... اذا اردت ان تضربنى فاضربنى بهذه البلطة على الاقل .

ولم يستطع عمى ان يتمالك نفسه ، وكان حريا بان يلبى امنية

الزنجى بكل تأكيد ، فمد يده لكى يأخذ البلطة ولكننى كنت اسرع اليها منه فامسكت بها والقيت بها فى بئر قريب . وصاح عمى فى حدة :

ــ ماذا فعلت ؟

أجبته : اننى انقذتك من مصيبة فانك اوشكت ان تقتل من انقذ ابنتك . انك تدين بحياة ابنتك مارى لهذا العبد ... هذا الزنجى هو الذى وعدتنى ان تمنحه حريته .

لم تكن اللحظة مناسبة لكى اذكره بوعده هذا ، وقد مست كلماتى ذهن عمى المقروح ، واجابنى فى لهجة كئيبة :

ــ امنحه حريته ؟ .. نعم . انه استحق حريته حقا .. ولكننا سنرى اية نوع من الحرية سيمنحها له قضاة المحكمة العسكرية .

جمدت هذه الكلمات الكئيبة الدم فى عروقى وتوسلت اليه انا ومارى بدون جدوى . وقد جوزى العبد الذى تسبب فى هذا المشهد بالجلد . اما منقذه فقد اقتيد الى زنزانات حصن جاليفيه متهما بانه رفع يده على رجل ابيض ، وهى جريمة كان يعاقب عليها دائما بالموت .

ــ ١١ ــ

ولعلكم تقدرون ايها السادة الى اى مدى اثارت هذه الظروف اهتمامى وفضولى . واستقيت المعلومات عن الأسير ، وقد كشفت لى هذه المعلومات اشياء كثيرة ، فقد قيل لى ان زملاء هذا الزنجى يبدون نحوه اعمق امارات الاحترام ، فعلى الرغم من انه كان عبد مثلهم الا انه كانت تكفيه مجرد اشارة منه لكى يسرعوا الى تلبية أوامره ... لم يولد فى الاكواخ ولا يعرف احد له ابا او اما ، وقد قيل ان احدى بواخر العبيد القته فى جزيرة سانتو دومينجو منذ سنوات قليلة ، وكان هـذا الامر الاخير فى حد ذاته يثير العجب

للنفوذ الذى يمارسه على جميع زملائه ، وذلك حتى دون استثناء الزنوج الخلاسيين ، اى اولئك الذين ولدوا فى جزر الانتيل والذين كما تعلمون ايها السادة ، يكنون اشد انواع الاحتقار نحو الزنوج الكونغوليين ، وهو تعبير غير سليم وشامل يشار به فى المستعمرة الى كل العبيد الذين جيىء بهم من افريقيا .

ومع انه كان يبدو سادرا فى حزن عظيم فان قوته الهائلة مضافا اليها مرارا عجيبة ، كانتا تجعلان منه موضوعا لأكبر جائزة فى حرث المزارع ، فقد كان يدور حول السواقى بأسرع مما يستطيع اى جواد ان يفعل ، بل ولمدة اطول . وكان يحدث له احيانا ان ينجز فى يوم واحد عمل عشرة رجال من زملائه لكى ينقذهم من العقاب المفروض بسبب الاهمال او التعب ، وكان محبوبا من جميع العبيد لهذا السبب ، ولكن الاحترام الذى كانوا يكنونه له كان يختلف كل الاختلاف عن الفزع الشديد الذى كان يبدو انهم يضمرونه لهابيبراه . وكان يبدو ان لاحترامهم هذا سببا خفيا .. كان اشبه بنوع من العبادة .

وقد قيل لى ايضا ان من الغريب انهم كانوا يرونه على رقة كبيرة وبساطة اكبر مع زملائه الذين كانوا يفتخرون باطاعته ، وانهم كانوا يرونه فى نفس الوقت متعاليا ومترفعا مع البعض . ومن الحق ان نقول ان هؤلاء العبيد المفضلين كانوا كحلقات اتصال ، يربطون بهم حلقة العبودية الى حلقة الاستبداد والطغيان فيضمون بذلك خسة ظروفهم الى وقاحة سلطتهم . كانوا يجدون لذة خبيثة فى ارهاقهم بالعمل والتنكيد عليهم ، ولكن كان يبدو مع ذلك انه لم يكن يسعهم الا احترام شعور الكبرياء الذى دفع الاسير الى اهانة عمى ، فان احدا منهم لم يجرؤ ابدا على فرض عقابات مهينة عليه ، واذا حدث وان ادين وتعرض لعقاب ما فان عشرين زنجيا كانوا يهبون لتلقى الجزاء بدلا منه ، فى حين يقف هو مكانه يشهد تعذيبهم كما لو انهم لم يفعلوا الا ما يمليه عليهم الواجب ... هذا الرجل العجيب كان معروفا فى جميع الانحاء باسم بيرو .

كل هذه النقاط اثارت خيالى بشكل غريب . وهللت مارى التى كانت تنتفض رحمة واشفاقا لحماسى واستولى بيرو بكل حمية على اهتمامنا بحيث استقرت نيتى على رؤيته ومساعدته . وكان يجب ان اجد وسيلة لكى اتحدث اليه .

ومع اننى كنت شابا صغيرا جدا فاننى ، نظرا الى اننى ابن اخ احد كبار اثرياء مستوطنى الغابة كنت قد عينت ضابطا للمليشيا فى مدينة الاكول . وكان حصن جاليفيه يقع تحت اشرافهم واشراف فرقة من الفرسان كان على راسها ضابط صف يشرف عادة على الحصن . وقد اتفق ان كان هذا الضابط فى ذلك الوقت بالذات ابن اخ مستوطن فقير كان من حسن حظى اننى اديت له خدمات كبيرة ، وكان مخلصا لى كل الاخلاص .

قاطع جميع المستمعين دوفرنى عند هذه النقطة ، فقد تملكهم ذلك الانفعال الذى يدل على ان القصة قد استحوذت على اهتمامهم . وقال احدهم معبرا عما يشعر به الجميع :

– لا ريب ان هذا الضابط صف كان ثاديه ؟

استأنف النقيب قصته قائلا : انكم اصبتم التخمين . وستفهمون دون مشقة انه لم يتعذر على الحصول منه على اذن بدخول زنزانة الزنجى ، فقد كان لى الحق فى زيارة الحصن بصفتى قائدا للمليشيا . ومع ذلك ، ولكى لا اثير شبهات عمى الذى كان غضبه لا يزال فى حدته حرصت على ان اذهب اليه فى الوقت الذى يهجع فيه الى قيلولته . وكان جميع الجنود نائمين فيما عدا الحراس . وقادنى ثاديه الى الزنزانة وفتح بابها ثم انسحب . ودخلت .

كان الاسود جالسا لانه لم يكن يستطيع الوقوف بسبب قامته المديدة . ولم يكن وحده بل كان معه كلب ضخم نهض وهو يزمجر وتقدم نحوى . ولكن الاسود صاح به : راسك !

وسكت الكلب على الفور وعاد فرقد عند قدمى سيده حيث فرغ من التهام بعض الطعام الحقير . وكنت مرتديا ثيابى العسكرية ، وكان النور المنبعث من نافــذة الزنزانة الضيقة ضعيفا بحيث ان بييرو لم يكن باستطاعته تمييز ملامحى .

قال يخاطبنى فى صوت هادىء : اننى مستعد .

واذ فرغ من هذه العبارة قام نصف قومة وعاد يقول : اننى مستعد .

قلت له وقد دهشت وانا اره حرا فى حركاته : كنت اظن انك مكبل بالسلاسل الحديدية .

وكان صوتى يتهدج لفرط الانفعال . وبدا ان السجين لم يعرف صوتى فقد دفع بقدمه بضع بقايا اصدرت رنينا وقال : السلاسل الحديدية ؟ .. اننى حطمتها .

وكان فى اللهجة التى نطق بها هذه الكلمات شيئا بدا كانه يقول : « اننى لم اخلق لكى اكبل بالسلاسل » . وعدت اقول :

— ولم يقل لى احد انهم تركوا معك كلبا .

— بل انا الذى ادخلته .

ازدادت دهشــتى ، فان باب الزنزانة كان مغلقا من الخــارج برتاج ضخم ، وكان عرض النافذة لا يزيد عن ست بوصات ، ثم انها كانت مزودة بقضيبين من الحديد . ويبدو انه ادرك ما يجول براسى لأنه نهض بقــدر ما سمحت له القبة المنخفضة ونزع دون اى جهد حجرا ضخما تحت النافذة ورفع القضيبين الحديدين المثبتين بهذا الحجر محدثا بذلك فتحة يمكن لرجلين ان يمرا منها بسهولة . وكانت هذه الفتحة تفضى الى غابة من اشجار الموز وجـوز الهند تكسو التل الذى شيد الحصن فوقه .

الجمتنى الدهشة . وفجاة سقط ضوء النهار على وجهى بحـدة واعتدل السجين كما لو انه وضع قدميه سهوا على ثعبان ، وارتطم جبينه بأحجار القبة وارتسم على وجهه مزيج من المشاعر المختلفة

المتناقضة ، وبدت فى عينيه نظرة غريبة فيها تعبير من الحقد والعرفان والدهشة المؤلمة . ولكن سرعان ما تمالك نفسه وعاد الهدوء والبرود الى وجهه فى اقل من دقيقة ، وحدق فى وجهى فى غير اكتراث وواجهنى كما لو كنت غريبا عنه وقال :

ـ استطيع ان اعيش يومين آخرين من غير ان اتناول اى طعام .

اتيت بحركة تدل على الاستنكار ، ولاحظت عندئذ مدى نحول الرجل . واردف هو يقول :

ـ كلبى لا يستطيع ان ياكل الا من يدى ، ولو لم اوسع النافذة لمات المسكين من الجوع ... ومن الخير ان اموت انا لا هو ما دام يجب ان اموت .

صحت : كلا ، كلا . انك لن تموت من الجوع .

لم يفهمنى وعاد يقول وهو يبتسم بمرارة :

ـ فى مقدورى بلا شك ان اعيش يومين آخرين دون ان اتناول طعاما ، ولكننى على استعداد الآن يا سيدى الضابط ، فاليوم خير من الغد . ولكن لا تؤذ راسك .

ادركت عندئذ معنى ما يقصده من قوله بانه على استعداد ، فقد كان متهما بجريمة عقوبة الموت ، وحسب اننى أتيت لكى اقتاده الى ساحة الاعدام . وراح هـذا الرجل الموهوب بهذه القوة الهائلة يقول فى هدوء وفى رقة طفل « اننى على استعداد » مع ان كل وسائل الهرب كانت متوفرة لديه .

وقال للمرة الثانية : لا تؤذ راسك .

ولم استطع ان اتمالك نفسى عندئذ فقلت : ما هـذا .. انت لا تحسبنى جلادك فحسب ، وانما تشك فى انسانيتى نحو هـذا الكلب المسكين الذى لم يفعل بى شيئا ؟

لانت ملامحه وتغير صوته وهو يقول باسطا لى يده :

ـ اغفر لى ايها الرجل الابيض .. فاننى احب هذا الكلب .

واردف يقول بعد صمت قصير : ان الرجال البيض الآخرين قد الحقوا بى اكبر الاذى .

عانقته وضغطت على يده وقلت فى رفق : الا تعرفنى ؟

ـ كنت اعرف تماما انك ابيض ، والزنجى بالنسبة للبيض ، مهما كانت طيبتهم شىء تافه . وعلى كل حال فان هناك ما اشكوه منك .

قلت مشدوها : وما هو ؟

ـ الم تحفظ لى حياتى مرتين ؟

جعلتنى هذه التهمة الغريبة ابتسم ، واذ راى ذلك استطرد يقول فى لهجة مريرة :

ـ نعم ... كان يجب ان احقد عليك ، فانك أنقذتنى من تمساح ومن مستوطن . وشر من هذا انك سلبتنى حق كراهيتك .. اننى تعيس تماما .

لم تدهشنى لهجته ابدا ولا افكاره الغريبة ، فقد كانت تتناسب معه ، وقلت له :

ـ اننى ادين لك باكثر مما تدين انت لى به . اننى ادين لك بحياة خطيبتى مارى .

بدا كأن ماسا كهربيا قد اصابه وقال فى صوت مكتوم : ماريا !

وتهاوت راسه فوق كتفيه اللذين توترا بحدة فى حين ندت من صدره زفرات مضنية .

واعترف ان شكوكى الهاجعة عادت واستيقظت ، ولكن دون اى غضب او اية غيرة ، فقد كنت اقرب الى السعادة ، وكان هو اقرب الى الموت بحيث لا يمكن لهذا الغريم ، اذا كان هو غريمى حقا ، ان يثير فى نفسى اية مشاعر اخرى غير العطف والرثاء .

ورفع راسه وقال : صه .. لا تشكرنى .

واردف يقول بعدفترة صمت : ومع ذلك فانا لست دونك مرتبة وجاها .

كشفت لى هذه الكلمات ناحية فيه اثارت فضولى بطريقة كبيرة ، واستحلفته ان يخبرنى من هو وما يعانيه من آلام وعذاب ولكنه التزم صمتا تاما .

وتأثر كل التأثر بمسعاى وبعروضى لخدمته ، وتغلبت توسلاتى على تقززه واشمئزازه من الحياة فخرج واتى ببعض الموز وبجوزة هند كبيرة ثم اغلق الفتحة وراح ياكل . وفيما انا اتحدث معه لاحظت انه يتكلم الفرنسية والاسبانية بطلاقة تامة وانه ذكى جدا ويعرف اشياء كثيرة . كان يعرف اغان اسبانية كان يترنم بها ويعبر عن معانيها تعبيرا جيدا . كان هذا الرجل غامضا من كل النواحي بحيث لم تدهشنى نقاوة لغته وحاولت من جديد ان اعرف السبب ولكنه اطبق فمه .

وغادرته اخيرا وامرت صديقى المخلص تاديه ان يوليه كل رعاية وكل عناية ممكنة .

ـ ١٣ ـ

كنت امضى كل يوم ، وفى نفس الوقت لزيارة السجين . فقد شغلتنى قضيته . وعلى الرغم من توسلاتى تشبث عمى برايه فى مقاضاته ، ولم اخف مخاوفى عن بيرو ، ولكنه كان يصغى الى فى غير اكتراث .

وكان راسك ياتى احيــانا ونحن معا وحــول عنقه ورقة كبيرة من اوراق النخيل ، وكان الزنجى يكفها ويقرا الرسالة المكتوبة عليها بحروف غريبة ثم يمزقها . واعتدت الا القى عليه اى سؤال .

ودخلت ذات يوم دون ان ينتبه الى ، فقد كان موليا ظهره لباب زنزانته ، وكان يترنم فى رفق بأغنية حزينة باللغة الاسبانية ومطلعها « انما انا المهرب » وعندما فرغ منها تحول الى وقال :

ـ ايها الاخ العزيز ، اذا اتفق وارتبت بى فعدنى ان تبعد ريبتك عندما تسمعنى اغنى هذه الأغنية .

وكانت نظرته فاتنة فوعدته بما يريد دون ان ادرى ما يعنيه بقوله هذا « اذا اتفق وارتبت بى » ، واخذ قشرة جوز الهند العميقة

التى جاء بها اول يوم وملأها بنبيذ مصنوع من البلح وطلب منى ان اغمس شفتى فيها ثم افرغها فى جوفه مرة واحدة ، ومنذ ذلك اليوم لم يخاطبنى الا باخيه .

ومع ذلك فقد بدا الامل يداخلنى من اجله ، فان حدة عمى هدات وشغلت احتفالات زواجى القريب بابنته كل افكاره . وانضمت مارى الى ، وكنت اقول له كل يوم ان بيرو لم يقصد اهانته وانما اراد منعه من ارتكاب عمل مفرط فى القسوة ، وان هذا الرجل الاسود ، بمعركته الجريئة مع التمساح قد انقذ مارى من موت مؤكد ، واننا ندين له ، هو بابنته وانا بخطيبتى ، وان بيرو على كل حال اشد عبيده قوة (فاننى لم اعد احلم بالحصول على حريته واصبح الامر يتعلق الآن بحياته) وان فى استطاعته ان ينجز عمل عشرة رجال آخرين وان ذراعه كاف لكى يدير اسطوانات طاحونة السكر . وكان عمى يصغى الى ويداخلنى الامل بذلك بانه قد يتنازل عن دعواه .

ولم اقل للأسود شيئا عن التبدل الذى طرا على عمى لاننى أردت ان ارى سروره بحصوله على حريته التامة اذا تمكنت من ذلك . وان ما اثار دهشتى هو ان ارى انه على الرغم من معرفته بأن مصيره الموت لم ينتهز اية وسيلة من وسائل الهرب المتاحة له . وتحدثت ليه فى ذلك فاجابنى فى برود :

ـ يجب ان ابقى فقد يخطر لهم اننى خائف .

ـ ١٤ ـ

وذات صباح جاءتنى مارى متالقة الوجه .. كانت قسماتها الحلوة تنطق بشيء اكثر ملائكية من فرحة حب طاهر ، الا وهو فكرة عمل طيب ينم عن الخير .

قالت لى : اصغ الى . ان يوم ٢٢ اغسطس بعد ثلاثة ايام ، وهو يوم زفافنا ، وسنكون قريبا ...

قاطعتها قائلا : لا تقولى قريبا ، فما زالت هناك ايام ثلاثة .

ابتسمت واضطرم وجهها وقالت : لا تجعلنى ارتبك يا ليوبولد . لقد خطرت ببالى فكرة سوف تسرك . انك تعلم اننى مضيت امس الى المدينة برفقة ابى لشراء مجوهرات زواجى ، وليس ذلك لاننى اتمسك بهذه الحلى وهذه الماسات ، فهى لن تجعلنى اجمل مما انا فى عينيك ، واننى لامنح كل درر العالم من اجل زهرة واحدة من هذه الزهور التى داسها ذلك الرجل البشع صاحب باقة الاقحوان. ولكن لا اهمية لهذا . ان ابى يريد ان يغمرنى بكل هذه الاشياء ، وأنا أتظاهر بأننى أريدها لا لشيء الا لاسعاده .. صفوة القول ، رأيت امس فستانا جميلا من الساتان الصينى بزهور كبيرة فى صندوق من الخشب النفيس ، وقد وقفت اتامله طويلا ... وهو فستان غال جدا ولكنه عجيب ، وقد لحظ ابى انه راق لى . وفى طريق عودتنا سالته ان يهبنى هبة على طريقة فرسان العصور القديمة ، وقد اقسم بشرفه انه لن يرد لى طلبا مهما يكن ظنا منه اننى اريد هذا الفستان .. ولكن لا .. ان ما اريده هو حياة بيرو .. ستكون هذه هدية زفافى .

لم يسعنى الا ان اضم هذا الملاك بين ذراعى ، فان كلمة عمى مقدسة . وبينما كانت مارى تمضى لتطالبه بتنفيذ وعده اسرعت انا الى حصن جاليفيه لأبلغ بيرو بأن حريته اصبحت اكيدة .

صحت وانا ادخل : اى اخى .. ابشر ، فانك نجوت . طلبت مارى حياتك من ابيها هدية بمناسبة زفافها .

أجفل العبد وقال : مارى ! .. زفاف .. حيـاتى .. كيف يمكن ان يتفق كل هذا ؟

قلت : الأمر بسيط جدا .. ان مارى التى انقذت انت حياتها ستتزوج .

صاح العبد وقد شردت عيناه وبدا فيهما الروع : بمن ؟

اجبت فى رفق : الا تعرف ؟ بى انا .

لانت قسمات وجهه عندئذ وقال فى استسلام : آه ... هذا صحيح ... بك انت ! .. وفى اى يوم ؟

ـ يوم ٢٢ اغسطس .

صاح فى فزع : ٢٢ اغسطس ؟ .. هل انت مجنون ؟

وامسك عن الكلام ، فنظرت اليه مشدوها . وبعد صمت قصير شد على يدى فى قوة وقال :

ـ اخى .. اننى ادين لك بالكثير بحيث لابد لى ان انصحك .. صدقنى .. امض الى الكاب وتزوج قبل يوم ٢٢ اغسطس .

اردت ان اعرف معنى هذه الكلمات الغامضة ، ولكن راحت كل محاولاتى عبثا . وقال اخيرا فى لهجة خطيرة :

ـ وداعا . لعلنى قلت الكثير ولكننى لا اكره شيئا مثلما اكره الجحود والحنث باليمن .

غادرته وكلى تردد وقلق ، ولكننى لم ألبث أن نسيتهما فى غمرة سعادتى .

وسحب عمى شكواه فى نفس اليوم ، وعدت الى الحصن لاطلاق سراح بييرو . واذ علم ثاديه بأن العبد اصبح حرا دخل معى الزنزانة ، ولكن بييرو لم يكن بها . وكان راسك موجودا وحده فاسرع الى يتمسح بى ، وكانت فى عنقه ورقة نخيل فأخذتها وقرات فيها هذه الكلمات : شكرا . انك انقذت حياتى للمرة الثالثة . لا تنس وعدك يا اخى .. وكان التوقيع تحت هذه الكلمات هو « انما انا المهرب » .

كان ثاديه اشد منى دهشة ، ولم يكن على علم بسر النافذة فتوهم ان الزنجى تحول الى كلب ، وتركته يعتقد ما يشاء مكتفيا بأن اطالبه بالصمت على ما رآه .

واردت ان اصحب راسك معى ، ولكنه ما ان الفى نفسه خارج الحصن حتى اخذ يعدو نحو السياج ولم يلبث ان اختفى .

استاء عمى لفرار العبد واصدر اوامره بالبحث عنه وكتب الى المحافظ يطلب منه ان يضع بيرو تحت تصرفه اذا عثروا عليه .

واقبل يوم ٢٢ اغسطس . وكان الاحتفال بزواجي بماري احتفالا فخما فى كنيسة « الاكول » ، وما كان اسعد ذلك اليوم الذى توالت بعده كل مصائبى . كنت ثملا بفرح لا يمكن لأحد ان يشعر به الا اذا مر بما مررت به . وكنت قد نسيت بيرو وتحذيراته المشئومة تماما . وهبط الشفق على هذا اليوم واضطررت ان انتزع نفسى من بهجتى لان واجبا مملا وضروريا فى نفس الوقت كان يستدعينى ، فان وظيفتى كضابط للمليشيا كانت تتطلب منى ان اقوم فى هذه الليلة بداورية عند ابواب الاكول . وكان هذا احتياطا عسكريا لابد منه لأن الاضطرابات قامت فى الجزيرة فجاة ، وتمر السود فى اماكن كثيرة ، ولا ريب ان هذا التمرد قد تم كبحه فورا ولكن المستعمرة كلها كانت تغلى بالاضطرابات منذ شهر يوليو ، فقد صدر الحكم باعدام الخلاسى الحر اوجيه ، احد زعماء المتمردين ونفذ الحكم فازدادت كراهية السود ونقمتهم ازاء هذا الانتقام الدامى .

وكان عمى اول من ذكرنى بواجبى ، فخضعت على الرغم من مشقة الفراق وارتديت ثيابى الرسمية ورحلت .

زرت المواقع الأولى دون ان القى ما يحمل على القلق . وكنت اسير فى منتصف الليل وانا اهيم فى دنيا الاحلام ، بجوار بطاريات الخليج ، عندما رايت فى الافق وميضا احمر يرتفع ويمتد من ناحية ليموناد وسان لويس دى موران . ونسبته انا وجنودى فى بادىء الامر الى حريق طارىء ، ولكن النيران لم تلبث ان اشتدت وضوحا وتضخم الدخان الذى تدفعه الرياح وتكثف بحيث لم اجد بدا من الاسراع الى الحصن للانذار وارسال نجدة . وفيما انا امر باكواخ عبيدنا السود دهشت اذ رايت اضطرابات غريبة تجرى فيها . كان

اغلبهم مستيقظين ويتكلمون فى انفعـــال كبير ، وكان يدور على السنتهم اسم غريب كانوا ينطقونه فى احترام كبـير وهو اسم « بوج جارجال » وسمعت بضع كلمات بدا لى من معناها ان السود فى الشمال ثائرون وانهم يحرقون المســاكن والمزارع الكائنة فى الناحية الأخرى من الكاب . وبينما كنت اعبر طريقا موحلا ارتطمت قدمى بكتلة من الفئوس مخبوءة بين الاغصان . واستولى على القلق على الفور وامرت جنود المليشيا بحمل السلاح وبمراقبة العبيد . وعاد كل شيء الى الهدوء .

ومع ذلك فقد بدا ان الاضرار تزداد فى كل لحظـة وتقترب من ليمبيه . بل اننى اعتقد اننى تبينت اصوات المدفعية وتبادل اطلاق النيران فى نحو الساعة الثانية صباحا ولم يستطع عمى وقد ايقظته قبل ذلك ، ان يتمالك هدوءه وامرنى ان اترك فى الاكول عددا من جنود المليشيا تحت قيادة الملازم وان أمضى الى الكاب . وبينما كانت محبوبتى المسكينة مارى تنام اطعت عمى ، وكان كما سبق القول عضوا فى مجلس القرية ، وابتعدت مع بقية جنودى .

ولن انسى ابدا منظر المدينة وانا اقترب منهـــا ، فقد كانت النيران تلتهم مساكنها وراحت تمتد بصورة بغيضة ، تسودها سحب من الدخان الذى تطرده الريح فى الشوارع . وتكومت عواصف من الشرر من البقايا الصغيرة المشتعلة من اعواد قصب السكر تدفعها الرياح فى عنف ككتل غزيرة من الثلج فوق اسطح المنازل وفـوق السفن الراسية فى المرسى مهددة فى كل لحظة مدينة الكاب بحريق مؤسف اكثر اتساعا من الحرائق التى شبت فى ضواحيها .

كان منظرا رهيبا وفظيعا ، فمن ناحية ، الاهالى يعرضون حياتهم لانقاذ السقف الوحيـــد الذى سيتبقى لهم من كل ثرواتهم من الحريق ، ومن ناحية اخرى السفن التى تخشى نفس المصير والتى كان من حظها على الاقل ان الرياح المشئومة كانت تبتعد مسرعة نحو بحر مصبوغ بنيران الحرائق الدامية .

تملكنى الذهول وانا اسمع صوت مدفع الحصن وصياح الهاربين ودوى الانهيارات ، ولم ادر الى اية جهة اوجه جنودى عندما التقيت فى ساحة العرض العسكرى بضابط الفرسان الصفر الذى تولى ارشادنا . ولن اتوقف ايها السادة لكى اصف لكم هول المنظر الذى طالعنا به السهل المحترق فان كثيرين غيرى وصفوا الكوارث التى تعرضت لها مدينة الكاب واود ان امر على هذه الذكريات الأليمة بالدم والنار ، ويكفينى ان اقول لكم ان العبيد المتمردين قد اصبحوا سادة مناطق كثيرة هامة وبعض المزارع الكبيرة فى ليمبيه ، وهذا ما جعلنى اشعر بالقلق بسبب قربها من الاكول .

واسرعت الى مقر المحافظ ، السيد دى بلانشلاند على الفور . كانت الفوضى سائدة والارتباك عاما ، حتى فى راس المحافظ نفسه . واستفسرت عن اوامره وانا ارجوه ان يفكر فى اسرع وقت فى امان الأكول وسلامتها ، لأن الخطر كان يتهددها بصفة عاجلة . وكان المحافظ مجتمعا بمسيو دى روفراى ، مارشال المدينة واحد كبار الجزيرة الرئيسيين ، وبمسيو دى تروزار ، الكولونيل بفرقة الكاب وببعض اعضاء الجمعيتين المتنافستين ، الاستعمارية والقروية ، وكبار المستعمرين . وفى اللحظة التى قدمت نفسى فيها كان المجتمعون يتداولون فى صخب كبير .

قال احد اعضاء الجمعية القروية : سيدى المحافظ ، لا يجب ان نبعد عن الحقيقة . ان العبيد هم المتمردون وليس الخلاسيين الاحرار . وقد اعلنا ذلك منذ وقت طويل وتوقعناه .

قال احد اعضاء الجمعية الأخرى : ولكنكم اعلنتم ذلك عن غير ايمان . اعلنتموه لكى تظهروا على حسابنا ، وكنتم تستبعدون تماما اى تمرد حقيقى للعبيد . ان دسائس جمعيتكم هى التى اثارت سنة ١٧٨٩ تلك الثورة السخيفة المزرية التى قام بها ثلاثة آلاف اسود

فى مدينة الكاب والتى لم يقتل فيها غير متطوع واحد ، فضلا عن ان زملاءه هم الذين قتلوه .

رد عليه الأول قائلا : اكرر لك اننا نرى الموقف فى وضوح اكثر منكم .

ـ انما انتم الذين الهبتم بمبالغاتكم راس هذا المسكين الذى ظهر فى المقهى بدون الشارة الوطنية ، وانتم الذين قتلتم الخلاس لاكومب لأنه قدم عريضة تبدا بهذه الكلمات التى لم يعد احد يستخدمها : باسم الرب والروح القدس .

ـ هذا كذب . انما هى معركة المبادىء والامتيازات .

ـ طالما فكرت يا سيدى فى انك رجل مستقل .

ولعل المعركة كانت تبلغ الى ابعد من هذا لو لم يتدخل المحافظ فيقول :

ـ ايها السادة ... هل يمكن اكل هذا الجدل ان يدرأ الخطر عنا لا ارجو ان تنصحونى لا ان تتبادلوا السباب . ها هى التقارير التى بلغتنى . لقد بدا العصيان الليلة فى الساعة العاشرة مساء بين زنوج مزرعة توربان . وكان على راس العبيد زنجى انجليزى يدعى بوكمان ، وقد استمال عبيد المزارع المجاورة فانضموا الى صفوفه وحرقوا كل المزارع وذبحوا المستعمرين بقسوة لا مثيل لها . وستفهمون هول المصاب حين اقول لكم ان علمهم كان جسد طفل معلق فوق رمح .

قاطعت مسيو دى بلانشلاند رعدة سرت بين مستمعيه . ولكنه لم يلبث ان استانف حديثه فقال :

ـ هذا هو ما يحدث فى الخارج . اما فى الداخل فيسود الاضطراب الشديد ، فقد قتل كثير من اهالى الكاب عبيدهم ، واحالهم الخوف قساة غلاظ القلوب ، واكثرهم هدوءا او اشجعهم اكتفوا بحبس عبيدهم فى اكواخهم . والبعض يتهم الخلاسيين الاحرار بهذه الجرائم . وكثير من المولدين اوشكوا ان يروحوا

ضـــحايا لغضب الشعب . وقد عرضت عليهم الاحتماء بالكنيسة التى تحرسها فرقة من الجنود . وهم يطالبوننى الآن بأن اعطيهم موقعا واسلحة للدفاع عنه لكى يبرهنوا لى انهم غير متآمرين مع العبيد المتمردين .

صاح صوت لم البث ان عرفت فيه صوت المزارع المشتبه فى انه من الخلاسيين والذى تبارزت معه .

— كلا ... لا تفعل يا سيدى المحافظ .. لا تعط الخلاسيين اية اسلحة .

سأله احد المستعمرين فى حدة : انت اذن لا تريد ان تقاتل ؟

ولكن بدا ان الآخر لم يسمعه واستطرد يقول : ان الخلاسيين هم الد اعدائنا . انهم هم وحدهم الذين يجب ان نخشى بأسهم . واننى اوافقك على انه لا يمكن ان نتوقع اى تمرد من ناحيتهم وانمـــا يجب ان نتوقعه من ناحية العبيد ، والعبيد ليسوا بشىء يذكر .

كان المسكين يظن انه يتبرأ من الخلاسيين بقوله هذا وانه يقوض فى اذهان الذين يصغون اليه الراى العـــام الذى يضمه الى هذه الزمرة المحتقرة . وكان فى قوله هذا كثير من الجبن بحيث انه لم يكن يمكن ان يفلح . وسرت بين الجميع همسات استنكار جعلته يفهم ذلك ، وقال الماريشال دى روفراى ، وهـــو رجل تقـدمت به السن .

— كلا ايهـــا السيد .. ان العبيـــد شىء يجب ان نحسب لهم كل حساب ... فهم اربعون مقابل واحد ، ونحن هالكون لا محالة اذا لم نجد من يقاوم العبيد والخلاسيين غير البيض من امثالك .

عض المستعمر على شفته ، وعاد المحافظ يقول : سيدى الجنرال ، ما رايك اذن فى الطلب الذى قدمه الخلاسيون ؟

اجاب مسيو دى روفراى : اعطهم ما يريدون من اسلحة يا سيدى المحافظ .. علينا ان نواجه كل الاحتمالات .

وتحول الى المستعمر المشكوك فى امره وساله : اسمع يا سيدى . هل ستحمل السلاح ؟

وعندئذ خرج المستعمر المهان وهو يتميز من الغضب .

ومع ذلك فان اصوات الاضطراب التى تدور فى انحاء المدينة كانت تسمع فى كل لحظة وحتى مقر المحافظ . وكانت تعيد الى اذهان الرجال المجتمعين الموضوع الذى يشغلهم . واعطى مسيو دى بلانشلاند لمساعده امرا كتبه على عجل بالقلم الرصاص ، وقطع الصمت الكئيب الذى اطبق على المكان بأن قال :

ـ سوف يتسلح الخلاسيون ايها السادة . ولكن ما زالت هناك اجراءات اخرى لابد من اتخاذها .

تدخل مستعمر من بين العدد القليل الذى يشترك مع جنود الثورة ويدعو نفسه المواطن جنرال كادو وكان معروفا عنه انه سبب بعض الاجراءات الدامية وقال :

ـ احرى بنا ان نعذب المتمردين لا ان نقاتلهم . ان الامم تريد امثلة ، فلندخل الرعب فى قلوب السود . انا الذى اخمدت ثورتى يونية ويولية بأن نصبت خمسين راسا من العبيد على جانبى الشارع الذى اقطن فيه . فلينضم كل منكم الى الاقتراح الذى اعرضه عليكم الآن . لندافع عن مدينة الكاب بالزنوج المتبقين لدينا .

صاح الجميع فى صوت واحد : وكيف هذا ؟ .. ما هذه الوقاحة !

عاد المواطن جنرال يقول : انكم لا تفهمون ايها السادة . لننصب سياجا من رءوس العبيد يحيط بالمدينة ، ابتداء من حصن بيكوليه حتى راس كاراكول . لن يجرؤ المتمردون على الاقتراب عندئذ . يجب ان نضحى من اجل القضية العامة فى مثل هذه اللحظة ، واننى اول من يسبقكم الى العمل . ان لدى ٥٠٠ عبد لم ينضموا الى المتمردين ، واننى اقدمهم لكم .

سرت همسات الفزع ازاء هذا الاقتراح البغيض وتمتم الجميع :

ـ هذا فظيع .. هذا امر بشع .

قال احد المستعمرين : ان مثل هذه الاجراءات هى التى اضاعت كل شيء . لو اننا لم نتسرع ونعدم متمردى يونيه ويوليه واغسطس

لامكننا ان نمسك بخيط مؤامرتهم الذى قطعه سيف الجلاد .

لزم المواطن كادو الصمت لحظة لفـــرط الغيظ ثم تمتم بين اسنانه :

ـ كنت اظن اننى غير مشبوه مع ذلك ، اننى مرتبط بجماعة من محبى الزنوج .

ولثالث مرة طلب مسيو دى بلانشلاند ان يمده الحـــاضرون بنصائحهم :

وقال احدهم :

ـ اليك رايى يا سيدى المحافظ . فلنستقل جميعا الباخرة ليوبار الراسية فى الميناء .

وقال آخر : فلنرصد مكافاة لمن ياتينا براس بوكمان .

وقال ثالث : لنطلع محافظ جمايكا على ما يدور .

قال رابع : آه ، نعم . لكى يرسل لنا خمسمائة بندقية كمـــا فعل فى المرة السابقة ... سيدى المحافظ ، ارسل اخطارا الى فرنسا ولننتظر .

قاطعه مسيو دى روفراى فى حدة : ننتظر .. ننتظر .. والسود ؟ هل ينتظرون ؟ .. والنيران التى تحيط بالمدينة ؟ .. هل تنتظر ؟ .. مسيو دى تولوز ، دق الطبول وخذ المدافع واسحق المتمردين بقنابلك وجنودك . وانت يا سيدى المحافظ ، اقم المعسكرات فى كنائس الشرق وفى ترودى فالير . اما انا فاننى ساتكفل بسهول حصن دوفان وساقود المعارك . ان لى بعض الخبرة فى شئون الدفاع . على ان سهول دوفان يكاد يحيط بها البحر والحدود الاسبانية وتبدو كشبه جزيرة تحمى نفسها بنفسها .. ونفس الميزة تتميز بها شبه جزيرة مول . لنستخدم كل هذا ولنتصرف .

نطق القائد الشيخ بكلماته هذه فى حزم وثبات بحيث اسكت كل الخـــلافات . وكان الجنرال على حق فان ادراك كل واحـد منهم بمصلحته الحقيقية ربط كل الآراء براس مسيو دى روفراى . وبينما

كان المحافظ يشد على يد الضابط الشجاع فى امتنان ويقول له انه يقدر قيمة نصائحه على الرغم من انه نطق بها بصيغة الآمر ، ويقلل اهمية مساعدته راح كل المستعمرين يطالبون بسرعة تنفيذ الاجراءات المذكورة .

وانتهزت هذه اللحظة لكى احصل من مسيو دى بلانشلاند على الاوامر التى كنت التمسها بفروغ صبر ، وخرجت اخيرا للانضمام الى فرقتى والعودة فورا الى الأكول على الرغم من التعب الذى كان يحس به الجميع فيما عداى .

— ١٧ —

كان النهار قد بدا يطلع حين بلغت ساحة العرض العسكرى وايقظت الجنود الذين رقدوا فى غير نظام فوق معاطفهم ، مع الهاربين من السهول ، والبهائم التى راحت تثغو وتخور ، ومختلف الامتعة التى احضرها الهاربون معهم . وكنت قد عثرت على فرقتى الصغيرة بين الجموع عندما رايت فارسا اصفر يتصبب عرقا ويغطيه الغبار يسرع الى فمضيت للقائه وعرفت من الكلمات القلائل التى افلتت من بين شفتيه فى جزع ان مخاوفى قد تحققت وان الثورة قد امتدت الى سهول الاكول وان السود يحاصرون حصن جاليفيه الذى احتمى فيه جنود المليشيا والمستعمرون . ويجب ان اقول لكم ان حصن جاليفيه لم يكن حصنا بمعنى الكلمة ، وانهم كانوا يطلقون هذا الاسم على اى معسكر يقع خلف التلال .

لم يكن بمقدورى ان افقد لحظة واحدة اذن ، ولهذا جمعت ما استطعت من جياد وبعض جنودى وبلغت املاك عمى فى نحو الساعة العاشرة تحت ارشاد الفارس الأصفر .

والقيت نظرة عابرة الى هذه المزارع الشاسعة التى لم تكن فى هذه اللحظة غير بحر من النيران ، تنتشر فيها امواج كبيرة من الدخان

كانت الريح تدفع اليها من وقت لآخر ، كشرارات ، جذوع أشجار كبيرة مشتعلة . وبدا كأن فرقعة كبيرة تمتزج بل انهيارات ودوى ترد على ولولة السود البعيدة التى كنا نسمعها قبل ان نراهم .

ولم تكن لدى انا غير فكرة واحدة لم يستطع ان يبعدنى عنهـا اختفاء تلك الثروات التى كانت مقدرة لى ، وهذه الفكرة هى سلامة مارى ، فما كان ليهمنى اى شىء لو ان زوجتى ماتت . وكنت اعرف انها موجودة فى الحصن ، ولم اطلب من الله الا ان اصل فى الوقت المناسب . كان هذا الأمل وحده يشد ازرى فى اضطرابى ويمدنى بشجاعة وقوة اسد .

وبلغنا اخيرا منحن للطريق استطعنا ان نرى منه حصن جاليفيه . كان العلم الثلاثى الألوان لا يزال يرفرف على سطحه ، ونار متأججة تحيط بجدرانه . واطلقت صيحة فرح وصحت بزملائى :

— اسرعوا .. اسرعوا ...

وضاعفت من سرعتى ومضينا خلال الحقول نحو الحصن الذى رأينا فى اسفله بيت عمى . كانت ابوابه ونوافذه محطمـة . ولكنه كان لا يزال قائما يتوهج بانعكاسات الحريق الذى لم يصل اليه لأن الريح كانت تأتى من البحر ولأنه كان فى مكان منعزل عن المزارع .

وكان هناك زنوج كثيرون مختبئون فى هذا البيت بدوا فى نفس الوقت فى النوافذ وعلى السطوح . وكانت المشاعل والحراب والفئوس تلمع وسط حلقات البنادق التى كانوا لا يكفون عن اطلاقها على الحصن بينما كان عدد كبير آخر من زملائهم يصعد ويقع ويعود فينهض من جديد دون انقطاع حول الجدران المحاصرة التى نصبوا السلالم بجوارها .

هذا الجمع من السود الذين يصدهم الجنود ويعودون فيهجمون من جديد كانوا من بعيد اشبه بخلية من النمل تحاول اختراق قشرة سلحفاة كبيرة ويحاول هذا الحيوان البطىء التخلص منها من وقت لآخر بهزة منه .

وبلغنا اخيرا الخنادق الاولى التى تحيط بالحصن .

ورحت ، وعيناى لا تفارقان العلم الذى يرفرف فوق سطح الحصن اشجع جنودى واستحثهم باسم عائلاتهم المحصورة بين جدرانه كعائلتى انا والتى نسعى لنجدتهم . وردوا على فى صيحة واحدة واصطفوا فى صف واحد وهممت بأن اصدر اليهم امرى بالهجوم ، ولكن ارتفعت من داخل الحصن فى هذه اللحظة بالذات صيحة هائلة اعقبها اعصار من الدخان احاط بالحصن كله ولف جدرانه بعض الوقت . وسمعنا صخبا اشبه بذلك الذى يصدر عن اتون مستعر،وما انقشعت حتى رايت حصن جاليفيه يرفرف عليه علم احمر ... علم المتمردين المنتصرين .

وهكذا انتهى كل شىء .

– ١٨ –

والآن اسمحوا لى ايها السادة ان امر مر الكرام على المشاعر التى عانيتها امام هذا المنظر الرهيب . غير اننى اعترف لكم دون خجل اننى لم اعبا لحظة واحدة بالحصن الذى سقط ولا بالجنود الذين قتلوا ولا بالعشرين اسرة التى ذبحت ، فقد ضاعت مارى منى الى الابد، بعد ساعات قلائل من زفافى اليها ، وانا السبب لاننى لو لم اتركها فى الليلة السابقة لكى اسرع الى الكاب انصياعا لأمر عمى لاستطعت ان انقذها على الاقل او ان اموت بجوارها ومعها فلا افقدها . هذه الافكار الكئيبة سببت حزنى حتى اوشكت ان اجن ، وكان يأسى ندما وتحسرا .

ومع ذلك ، فقد بلغ الغضب بزملائى الى حد انهم صاحوا ينادون بالانتقام ، واسرعنا ، وسيوفنا فى اسناننا ومسدساتنا فى ايدينا وسط المتمردين . وعلى الرغم من انهم كانوا اكثر عددا فقد فروا امامنا . ولكننا كنا نراهم فى وضوح : على يميننا ويسارنا وامامنا

وخلفنا يذبحون البيض ويبادرون بحرق الحصن . وازداد غضبنا ازاء جبنهم .

وعند احد الابواب الخلفية للحصن تقدم ثاديه الى وهو مثخن بالجراح وقال :

– سيدى النقيب ، ان صاحبك بييرو ساحر او « اوبى » كما يقول هؤلاء الزنوج الملاعين ، أو هو شيطان على الاقل . كنا نقاوم مستبسلين . وكنت انت قادما ، وكنا على قاب قوسين من النصر عندما دخل الحصن من حيث لا ادرى ، اما عن عمك واسرته وزوجتك ...

قاطعته متسائلا : مارى ... أين مارى ؟

وفى هذه اللحظة خرج زنجى اسود عمـــلاق من خلف حظيرة محترقة حاملا معه امراة شابة تصيح وتقاومه . كانت المراة الشابة مارى وكان الأسود بييرو .

صحت : ايها الخائن ...

وصوبت مسدسى نحوه ، ولكن ارتمى احد العبيد الثائرين امامه وخر ميتا ، والتفت بييرو ، وبدا كما لو كان يوجه الى بضع كلمات ثم توغل وسط اعواد قصب السكر حاملا فريسته معه . وبعـد لحظة تبعه كلب ضخم يحمل بين أسنانه مهدا يرقد فيه آخر وليد لعمى . وعرفت الكلب على الفور ، كان راسك ، واستبد بى الغضب وافرغت مسدسى فى الكلب ولكننى لم اصبه .

ورحت اعدو كالمجنون مقتفيا اثره ، ولكن ما مر بى من تعب وارهاق اثناء الليل ، والجهد الذى بذلته فى الساعات الاخيرة دون ان انال اى قسط من الراحة ومخاوفى من اجل مارى .. وانتقالى الفجائى من منتهى السعادة الى آخر مرحلة من مراحل الشقاء ، كل هذه الانفعالات انهكتنى اكثر مما انهكنى التعب الجسمانى فلم امش بضع خطوات حتى تهاويت وغشيت عينى سحابة واغمى على .

عندما استيقظت الفيت نفسي في بيت عمي الذي اصابه الدمار ، وبين ذراعي ثاديه .. وكان ثاديه الوفي يتأملني في قلق شديد .

وصاح بمجرد ان احس بنبضي يتحرك تحت يديه : النصر ! .. النصر ! .. انهزم الزنوج وعاد النقيب الى الحياة .

قاطعت صيحة الفرح التي اطلقها بسؤالي الخالد : اين ماري ؟

لم اكن قد جمعت شتات افكاري بعد ، ولم احتفظ بذكرى مصابي ، وانما باحساسي به . واطرق ثاديه براسه ، وعندئذ عادت الى ذاكرتي كلها ، وعشت في لحظة وجيزة كل ما مر بي في هذه الليلة الرهيبة ، ورايت الزنجي العمـــلاق يحمل ماري بين ذراعيه خلال الحريق كرؤيا شيطانية ، والضوء البشع الذي دوى في المستعمرة واظهر كل البيض اعداء لعبيدهم جعلني ارى في بييرو ، هذا الرجل الطيب والكريم والوفي الذي يدين لي بحياته ثلاث مرات جاحدا ووحشا وغريما .. واكد لي اختطافه لزوجتي في نفس يوم زفافنا شبهاتي الأولى ، وعرفت اخيرا ، وفي وضوح تام ان مغنى الاستراحة لم يكن غير مختطف ماري الحقير ... ما اكثر ما حدث من تغييرات في هذه الساعات القلائل .

قال لي ثاديه انه تعقب بييرو وكلبه دون جدوى ، وان الزنوج انسحبوا على الرغم من ان عددهم كان يفوق جنودنا بكثير ، وانه كان في مقدورهم التغلب علينا بكل سهولة ، وان حرق املاك اسرتي مستمر دون ان يستطيع احد ايقافه .

وسألته ان كان يعرف ما حدث لعمي ، وكان قد نقلني الى غرفته بالذات فاخذ يدي في صمت وقادني نحو المخدع وازاح الستائر .

كان عمي المسكين ممددا في فراشه ، يغوص في قلبه خنجر حتى مقبضه ، وكان الهدوء البادي على وجهه يدل على انه تلقى الطعنة وهو نائم . وكان فراش القزم « هابيبراه » وكان يرقد عادة عند

قدميه ، ملوثا هو الآخر ، والدم يصبغ السترة المزخـرفة التى يرتديها المجنون المسكين . وكانت ملقـــاة على الارض بجوار الفراش .

ولم اشك فى ان المهرج مات ضحية اخلاصه لعمى ، وان زملاءه ربما قتلوه وهو يدافع عن سيده .

ولمت نفسى لشبهاتى السابقة التى جعلتنى احكم حكما خاطئا على هابيبراه وعلى بيبرو . وامتزجت دموعى التى ذرفتها على نهـــاية عمى العاجلة ببضع حسرات على مجنونه . وامرت بأن يبحثوا عن جثته ، ولكن ابحاثنا راحت عبثا ، واعتقدت ان الزنوج اخـذوا القزم والقوا به فى النيران . وفى الجنازة التى اقيمت لعمى امرت ان تتلى الصلاة على روح هابيبراه المخلص .

— ٢٠ —

وقع حصن جاليفيه ودمر ، واختفت املاكنا ، ولم تعد هنـاك جدوى من اطالة المقام فى هذه الاطلال ، فعدنا الى مدينة الكاب فى نفس المســاء .

ووقعت فريسة مرض شديد ، وانتابتنى الحمى ، فان الجهـد الذى بذلته لكى أتغلب على يأسى كان من العنت بحيث توترت الطاقة وانقطعت ورحت اهذى .. آمالى المخدوعة وصديقى الغادر وضياع مستقبلى والغيرة الشديدة .. كل ذلك افقدنى الرشد والصواب . خيل لى ان النيران تسرى فى عروقى وان راسى توشك ان تنفجر . كان قلبى يتمزق غضبا وحنقا .. تصورت مارى فى قبضة عبد اسود اصبح سيدها ، وأعنى به بيبرو . وقد قيل لى اننى كنت اندفع من فراشى وانه كان لابد لى من ستة رجال للحيلولة بينى وبين ان أحطم راسى فى الجدران .

ومرت هذه الازمة بفضل الاطباء وعناية ثاديه . ولا ادرى اية

قوة تدفع الشباب الى التمسك بالحياة .. كل ذلك تغلب على الداء وشفيت بعد عشرة ايام ، ولم اشعر باى حزن او اسى لبقائى على قيد الحياة رغبة منى فى الانتقام .

وما ان شفيت حتى اسرعت الى مسيو دى بلانشلاند أنشد عملا ، وقد اراد ان يعهد الى بمركز للدفاع عنه ولكننى توسلت اليه أن يبعث بى كمتطوع الى احدى الفرق المتحركة التى يرسلها من وقت لآخر لمحاربة السود .

وكان الجنود قد اسرعوا بتحصين الحصن ، وكانت الثورة تتقدم تقدما فظيعا ، وبدا زنوج بورتو برنس يثورون . وكان بياسو يقود زنوج ليجيه والأكول ، اما جان فرانسوا فقد نادى بنفسه قائدا عاما لثوار سهول ماريبارو ، اما بوكمان ، الذى اشتهر بعد ذلك بنهايته المفجعة فكان يطوف بزملائه من الاشرار بشواطىء ليموناد فى حين اقامت عصابات مورن روج عليها زعيما اسود يدعى بوج جارجال .

وقد تعارضت اخلاق وطباع هذا الاخير مع وحشية الآخرين تعارضا غريبا ، اذا صدقنا ما اشيع عنه . فبينما كان بياسو وبوكمان يتفننان فى اختراع شتى الوان الموت والتعذيب للأسرى الذين يقعون بين ايديهم ، كان بوج جارجال يبادر ويقدم لهم كل الوسائل التى تتيح لهم مغادرة الجزيرة . وكان الأولان يعقدان الصفقات مع البواخر الاسبانية التى تختلف الى السواحل ويبيعان لها مسبقا الاسلاب والغنائم التى يضمانها من المساكين والتعساء الذى يضطرون الى الفرار . اما بوج جارجال فقد اغرق الكثير من هؤلاء القراصنة ، وقد اخلى سبيل مسيو كولادى مينيه وثمانية من المستعمرين المعروفين كان بوكمان قد امر بربطهم الى عجلة القيادة باحدى هذه السفن ، وراح الجميع يروون عن ذلك الزعيم آلاف القصص التى تدل على كرمه والتى لا يسمح المقام بذكرها .

وبدا لى ان رغبتى فى الانتقام ليس من السهل تحقيقها ، فانى

لم اسمع احدا يتكلم عن بيرو . واستمر الثوار الذين يتزعمهم بياسو يثيرون قلق مدينة الكاب ، بل انهم اجترأوا على الاقتراب من التل الذى يشرف على المدينة ولقى مدفع القلعة مشقة كبيرة فى ابعادهم . وعقد المحافظ العزم على أن يردهم داخل الجزيرة ، وانضم جنود المليشيا بجنود مدن الاكول وليجيه وداناميتت وماريبارو الى فرقة الكاب والفرق الصفراء الرهيبة والفرق الحمراء وتكون منهم جميعا جيشنا الفعال . اما جنود المليشيا بمدن دوندون وكارتييه ودشان فقد انضمت اليهم فرقة من المتطوعين بقيادة التاجر بونسنيون وعسكروا فى مدينة الكاب للدفاع عنها .

وقد اراد المحافظ ان يتخلص اولا من بوج جارجال الذى بدت هجماته تثير قلقه فارسل اليه مليشيا الوانا مينيت وفرقة من الكاب . وعاد هؤلاء الجنود بعد يومين مدحورين تماما . واصر المحافظ على رغبته فى قهر بوج جارجال فارسل اليه نفس الفرقة بعد ان دعمها بخمسين من الفرسان الصفر واربعمائة من جنود المليشيا . وعاد هذا الجيش الثانى وهو فى حالة اسوا من سابقه ، وكان ثاديه ضمن هذه البعثة الثانية ، وقد اصابته خيبة امل كبيرة واقسم لى عند عودته انه سوف ينتقم من هذا البوج جارجال .

واغرورقت عينا دوفرنى بالدموع وعقد ذراعيه فوق صدره وبدا كانه غرق فى حلم كئيب لبضع دقائق ثم عاد واستانف قصته .

— ٢١ —

جاء النبأ بأن بوج جارجال غادر المورن روج واتجه برجاله عبر الجبال لكى ينضم الى جيش بياسو ، وكان المحافظ يرقص طربا وقال وهو يدعك يديه : لقد وقعوا فى ايدينا .

وفى صباح اليوم التالى ، كان الجيش الاستعمارى على بعد

فرسخ واحد من مدينة السكاب . وهجر الثوار ، وهم يروننا نتقدم ، بورت مارجو وحصن جاليفيه مسرعين ، وكانوا قد اقاموا فى الحصن مركزا للدفاع عنه قوامه قطع ضخمة من المدفعية غنموها من فرق الساحل ، وارتدت كل العصابات نحو الجبال ، وكان المحافظ منتصرا . واستأنفنا تقدمنا وكل منا ، وهو يمر بهذه السهول القاحلة المقفرة ، يحاول ان يحيى بنظرة اخيرة حزينة المكان الذى كانت فيه مزارعه واملاكه . وكان لا يستطيع فى اغلب الاحيان معرفة المكان .

وكان تعترضنا من وقت لآخر جمرات تاتى من الحقول المزروعة وتهبط فى الغابات والمفازات ، ففى مثل هذا الطقس حيث الارض ما زالت عذراء والنباتات وفيرة تصاحب الحرائق ظواهر غريبة ، ويسمعها المرء من بعيد ، واحيانا قبل ان يراها فهى تصدر صوتا اشبه بهدير الشلالات . وكذلك جذوع الاشجار التى تنهار والاغصان التى تفرقع والجذور التى تطقطق فى الارض والاعشاب الكبيرة التى تحترق وهدير البحيرات وصفير اللهب الذى يلتهم كل ما امامه ، يصدر عن كل ذلك صخبا لا يلبث ان يهدأ ثم يزداد حدة مع انتشار الحريق ، وترى احيانا حافة من الاشجار الخضراء لم تمتد اليها النار بعد ثم اذا بها شعلة متاججة ، واذا بها تبدو كثعبان احمر يتلوى ويتلوى ثم يرتفع ويهبط ولا تلبث النيران ان تخبو وتنقشع عن سحابة من الدخان ترتفع وتمطر رمادا احمر فوق الارض .

— ٢٢ —

وفى مساء اليوم الثالث بلغنا عنق جراند ريفيير (النهر الكبير) وخيل لنا ان الزنوج اصبحوا على بعد عشرين فرسخا منا ، فى الجبل .

واقمنا معسكرنا فوق قمة تل صغير ، وبدا لنا انهم استخدموا المكان لنفس الغرض لأنه كان قد تجرد من الاشجار والنباتات . وكان المكان لا يدعو الى الارتياح، ولكن والحق يقال، كنا نشعر بالهدوء. فقد كانت تحيط بالتل من جميع النواحى صخور عمودية حولها غابات كثيفة ، والنهر يجرى خلف المعسكر ويضيق بين صفيه فى هذه الناحية ، وتنمو على الضفتين نباتات متعرشة تكاد تخفى النهر عن الانظار ، بحيث ان العين التى تتأمل هذه الصخور من عل يخيل لها انها ترى مزارع ندية ولا يدل على وجود النهر فى هذا المكان غير خرير المياه .

ولم تلبث الشمس ان اختفت وراح الليل يبسط ذيوله على المعسكر ، ولم يعد يبدد الصمت غير صيحات الطيور وخطوات الحراس الرتيبة .

وسمعنا فجاة فوق رءوسنا غناء الزنوج المخيف ، واضطرمت الاشجار التى تحيط بالصخور بالنيران ، ورأينا على ضوئها عصابات كثيرة العدد من الزنوج والخلاسيين ، عرفنا فيهم زنوج بياسو .

كان الخطر عاجلا ، واستيقظ الزعماء مذعورين واسرعوا يجمعون جنودهم . وقرعت الطبول ونفخ فى البوق ، وتجمعت صفوفنا فى ارتباك ، وبدلا من ان ينتهز الثوار فرصة ارتباكنا وقفوا جامدين ينظرون الينا ويغنون .

واذا بعبد عملاق يقف وحده على قمة اعلى صخرة من الصخور الثانوية التى تحيط بالنهر الكبير ، ترفرف على جبينه ريشة بلون النار ، وفى يده اليمنى بلطة وفى يده اليسرى علم احمر . وعرفنا فى هذا العملاق بيبرو . ولو اننى وجدت فى هذه اللحظة بندقية تحت يدى فلعل الغضب كان يحملنى على ارتكاب عمل يدل على الخسة والجبن . وكرر الاسود اغنيته المخيفة وغرز علمه فى الصخرة ورمى ببلطته فوق رءوسنا حيث هبطت فى النهر . واحسست بالاسف عندئذ لاننى ادركت انه لن يموت بيدى .

وبدا السود عندئذ يلقون علينا سيلا من الصخور . وراح الرصاص والسهام يتساقط حولنا فى النهر ، واحتدم جنودنا غيظا لعدم تمكنهم من النيل من مهاجميهم ، وماتوا وهم فريسة اليأس ، بعضهم طحنتهم الصخور والبعض نال منهم الرصاص والسهام . وسادت الفوضى بين صفوف الجيش . وفجاة ارتفعت ضجة هائلة من وسط النهر . كان يدور فيه منظر غريب ، فان الفرسان الصفر ، وقد لحقتهم اسوا معاملة من جموع الثوار ، خطر لهم ان يفلتوا منهم باللجوء الى النباتات المتعرشة النامية على ضفة النهر . وكان ثاديه هو اول من خطرت له هذه الفكرة ، وهى فكرة رائعة .

وهنا امسك الراوى عن الكلام .

– ٢٣ –

كان ثاديه قد تسلل الى الخيمة منذ ربع ساعة وذراعه معلق الى صدره دون ان يراه احد ووقف فى ركن منها . ودلت حركاته فقط على مدى اهتمامه بقصة النقيب ، وفى هذه اللحظةبالذات خيل له ان الاحترام لا يسمح له بأن يترك مثل هذا الثناء المباشر يمر دون ان يشعر دوفرنى فتمتم يقول فى ارتباك :

– انت رجل كريم جدا يا سيدى .

ارتفعت قهقهة عامة وتحول دوفرنى اليه وصاح يقول فى لهجة قاسية : كيف هذا ؟ .. انت هنا ياثاديه ؟ .. وذراعك ؟

وكانت هذه اللهجة جديدة بالنسبة للجندى الشيخ فتجهمت اساريره وتمايل فى وقفته ، وطوح براسه الى الخلف لكى يوقف الدموع التى ترقرقت فى عينيه وقال فى صوت خافت :

– لم اكن اتوقع ان تخاطبنى بهذا الجفاء كما لو اننى رجل غريب يا سيدى .

هب النقيب واقفا على الفور وقال : عفوا يا صديقى العزيز ، عفوا . لا ادرى ماذا قلت ، فهل تصفح عنى ؟

اغرورقت عينا الرقيب بالدموع رغما عنه وقال : هذه ثالث مرة ابكى فيها ، ولكننى ابكى الآن فرحا .

وانبسطت اسارير الجميع ، وساد صمت قصير قطعه النقيب بأن ساله اخيرا :

– ولكن قل لى لماذا غادرت غرفة الاسعافات وأتيت الى هنا ؟

– ذلك لأننى اردت ان اسالك اذا كنت تحب ان اضع السرج الموشى من اجل معركة الغد .

ضحك هنرى وقال : كان الاجدر بك ياثاديه ان تسال الطبيب الجراح اذا كان يجب أن تلف يدك فى بعض النسالة (خيوط كانت تستعمل قديما فى تضميد الجروح) .

وقال باسكال : او ان تساله اذا كان فى مقدورك ان تحتسى قليلا من النبيذ لانعاش قواك .. ومهما يكن فاليك بكأس من الخمر لا يمكن الا ان تصيبك بالخير .

تقدم ثاديه ، وحيا تحية الاحترام واعتذر للقوم لاضطراره لاخذ الكأس بيده اليسرى وافرغها فى جوفه فى صحة الجميع . واضطرم وجهه وقال :

– بلغت من قصتك يا سيدى النقيب تلك اللحظة حيث كنت .. نعم ، انا الذى اقترحت عليهم اللجوء الى تلك النباتات المتعرشة لكى تنجو من الموت تحت الاحجار . ولكن قائدنا كان لا يعرف العوم فخشى ان نغرق ، وهذا امر طبيعى فاخذ يعارضنى بكل قواه الى ان راى حجرا ضخما اوشك ان يحطمه يقع فى النهر ولا يغوص فيه بسبب الاعشاب فقال عندئذ : اولى بنا ان نموت كما مات فرعون مصر . ولكنه طلب منى ان اكون أول المتقدمين فمضيت وهبطت الى الضفة ووثبت الى النهر وانا اتشبث باعلى الاغصان . ولكننى لم البث ان احسست بأن هناك من يشدنى من ساقى فقاومت . ولحق

بى جميع الفرسان وهم يصيحون كالشياطين . كان زنوج مورن دوج مختبئين بين الاعشاب متربصين لكى يفاجئونا فى اللحظة المناسبة واختلط الحابل بالنابل ودار عراك مستميت . وكانوا عراة الاجسام واخف منا حركة ، ولكن ضرباتنا كانت اشد من ضرباتهم ، واخذنا نسبح بذراع ونقاتل بالاخرى ، كما يحدث عادة فى مثل هذه الظروف . اما الذين يجهلون السباحة فكانوا يتعلقون بالاعشاب وكان الزنوج يجذبونهم من ارجلهم . وبينما المعركة فى اشدها رايت عبدا ضخما يقاتل كالشيطان ويقاوم ثمانية او عشرة من زملائى . واسرعت اليهم ، وعرفت فى العبد بيرو . وكنا قد اختلفنا منذ ان سقط الحصن اطبقت بيدى على عنقه وهم بأن يتخلص منى بطعنة من خنجره عندما رآنى فاستسلم لى بدلا من أن يقتلنى ، وهذا لسوء الحظ لانه لو لم يستسلم لى .. ولكننا سنعرف هذا فيما بعد .. ولما راى الزنوج اننى أسرته هجموا على ليخلصوا منى . وهجم جنود المليشيا فى نفس الوقت . واذ راى بيرو ان زنوجه هالكين لا محالة نطق ببضع كلمات لم افهمها وكان لها وقع السحر لأن الزنوج بادروا بالفرار واختفوا فى لمح البصر . وكان من الممكن ان تكون هذه المعركة النهرية رائعة لو لم افقد فيها أصبعا ، ولكن كان هذا مكتوبا فى لوح القدر يا سيدى النقيب .

وقال دوفرنى : هذا صحيح يا عزيزى ثاديه . كانت هذه الليلة مشحونة حقا .

واوشك ان تستغرقه احدى هذه الاحلام العميقة التى اعتاد عليها لو لم يحثه القوم على اتمام قصته . واستطرد يقول عندئذ :

— ٢٤ —

بينما كانت المعركة التى ذكرها ثاديه تدور فوق التل كنت قد استطعت ، مع بعض رجالى ، تسلق صخرة كبيرة مسطحة تشرف على

المواقع التى يحتلها المتمردون ، وما ان مهدنا الطريق حتى تبعنا جنود الميليشيا ، ورحنا نطلق النيران ، وكانت أسلحتنا تفوق أسلحة الزنوج بكثير فلم يستطيعوا الرد عليها بعنف ، وسرعان ما وهنت عزيمتهم ، واستبسلنا فى القتال ، ولم تلبث الصخور ان اخليت من اعدائنا الذين حرصوا قبل ذلك على القاء جثث قتلاهم على بقية الجيش الذى لا يزال يقاتل فوق التل ، فاسرعنا الى الاشجار الضخمة وقطعنا بعضا منها وربطناها بعضها ببعض وصنعنا منها زورقا يكفى لمائة منا . وبواسطة هذا الزورق المرتجل مررنا بالصخور المهجورة ، وبهذا وجد جزء من الجيش نفسه فى موقف احسن . وزعزع هذا المنظر من قوة المتمردين ، وضاعفنا من اطلاق النار ، وعلا صياح الثوار ، وكان يدل على اليأس ، وتخلله اسم بوج جارجال ، وساد الذعر بين صفوفهم ، ورأينا كثيرين منهم يقفون مذهولين فوق الصخرة التى يرفرف عليها العلم الاحمر ويرفعون العلم ويسرعون الى ناحية النهر ، ودلنا ذلك على ان زعيمهم اما ان يكون قد مات او اخذ اسيرا .

وتزايدت جراتنا ، وعزمت على ان اطرد بالسلاح الابيض الثوار من الصخور التى ما زالوا يحتلونها ، والقيت جسرا من احد جذوع الاشجار بين صخرتنا والصخرة المجاورة واندفعت وسط الزنوج ، وهم جنودى ان يلحقوا بى ، ولكن احد جنود الثوار هوى ببلطته على جذع الشجرة فشطره نصفين وسقط فى النهر فى دوى شديد .

والتفت خلفى ، وفى هذه اللحظة احسست بستة او سبعة من الزنوج يجردوننى من سلاحى . وقاومتهم كالاسد ، ولكنهم اوثقونى بالحبال غير عابئين بالرصاص الذى يتساقط عليهم من رجالى .

ولم أشعر بالعزاء الا وانا اسمع صيحات النصر تدوى حولى بعد لحظات . ولم البث ان رايت السود والخلاسيين يتسلقون الصخور المنحدرة مرتبكين وهم يصيحون يائسين . وتبعهم اولئك

الذين اسرونى ، وقد حملنى اقواهم فوق كتفيـه ومضى بى نحو الغابات وهو يثب من صخرة الى اخرى فى خفة الوعل .

ولم يلبث ضوء النيران ان اختفى ، ولكن صاحبى اكتفى بنور القمر وراح يمشى وقد خفف من سرعته .

— ٢٥ —

بعد ان اجتزنا غابة من الشجيرات الصغيرة وعبرنا جداول كثيرة وصلنـا الى واد وحشى لم اعرفه من قبل ، يقـع فى قلب الأكول يعرفونه فى سانتو دومينجو باسم « الجبال المزدوجة » وهو سهل خصب اخضر محصور بين جدران من الصخور العـارية تنبت فيه اشجار الصنوبر والنخيل ، برده قارس يزداد رطوبة فى الليل . وكان الفجر قد بدأ يبزغ فأضاء بنوره القمم العالية المحيطة ، اما الوادى نفسه فكان لا يزال غارقا فى ظلام دامس ، لا يبدد ظلمته غير النيران العديدة التى يشعلها الزنوج . وكان ذلك السهل نقطة لتجمعهم غير المنظم ، وكان السـود والخلاسيون يأتون من وقت لآخر فى فرق مفزوعة مذعورة وهم يطلقون صيحات اليأس والغضب . وكانت النيران التى تومض كعيون النمر فى السهل المظلم تدل على ان المعسكر يزداد اتساعا فى كل لحظة .

والقائد الاسود الذى اسرنى عند جذع شجرة من البلوط ، وكنت ارى من مكانى هذا المنظر دون اية مبـــالاة . وربطنى من وسطى بالشجرة واحكم وثاقى بحيث لم استطع حراكا ووضع فوق راسى طاقيته الحمراء ، ولا ريب انه اراد ان يشير بها الى اننى ملكه . وبعد ان تأكد اننى لن استطيع الهرب ، وان احدا غيره لن يستطيع ان يأخذنى ، وهم بأن يبتعد استقرت نيتى على ان اخاطبه عندئذ فسألته باللهجة الاقليمية هل هو من جماعة دوندون او جمـــاعة المورن روج فتوقف واجابنى فى كبرياء « مورن روج » . وخطرت

ببالى فكرة ، فقد سمعت عن كرم زعيم هذه الجماعة ، بوج جارجال، وعلى الرغم من اننى كنت قد وطدت العزم على ان فى الموت نهاية لمصائبى فان فكرة التعذيب على يدى بياسو كانت تومى الى برعب شديد . لم اكن ابغى شيئا غير الموت ولكن من غير تعذيب او تنكيل ، ولعل ذلك ضعفا ، غير اننى اظن ان طبيعة الرجل تتمرد دائما فى مثل هذه الحالات . ورايت اذن اننى اذا استطعت ان انجو من بياسو فقد احصل من بوج جارجال على ميتة بعيدة عن التعذيب .. ميتة جندى . وطلبت من ذلك العبد ان يمضى الى حيث بوج جارجال فاجفل وصاح بى وهو يضرب جبينه بيده « بوج جارجال » ، ثم صاح فى غضب وهو يلوح لى بقبضته « بياسو .. بياسو » وبعد ان نطق بهذا الاسم المخيف تركنى ومضى .

اثار غضب الزنجى واله ذكرى تلك اللحظـــة من المعركة التى استنتجنا منها وقوع بوج جارجال فى الأسر او موته ، ولم اعـد اشك فى ذلك واستسلمت لمصيرى ولانتقـام بياســو ولشروره وتعذيبه .

- ٢٦ -

هذا والوادى لا يزال سادرا فى الظلام وجموع السود ما زالت تتوافد والنيران تزداد اتقادا وتاججا . وجاءت جماعة من الزنجيات واشعلن نارا على مقربة منى ، تلمع فى سواعدهن وسيقانهن اساور من الزجاج الاحمر والازرق والبنفسجى وفى آذانهن اقراط وفى كل اصبع من اصابع ايديهن وارجلهن خواتم ويعلقن فى اعناقهن احجبة وعقودا تتدلى على صدورهن وفوق خصورهن مراول مزينة بالريش عرفت من نظراتهن الغامضة الزائفـــة ، وصياحهن المتزن انهم من الساحرات . ولعـــلكم تذكرون انه يوجد بين سود افريقيا زنوج موهوبون بموهبة الشعر والارتجال الى حد يشبه الجنون . وهؤلاء

الزنوج يتنقلون من بلد الى آخر وهم اشبه بهؤلاء الرواة الذين كانوا ينشدون الملاحم والاساطير فى العصور القديمة او الشعراء الغنائيين الذين اشتهرت بهم فرنسا فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر . وهذا النوع من الزنوج يعرف باسم السحرة ، وزوجاتهم الساحرات قد مسهن الشيطان هن الاخريات ويصاحبن ازواجهن فى رقصهم وغنائهم . كان بعض من هؤلاء النسوة اذن هن اللاتى التففن على بعد خطوات منى وقد ثنين سيوفهن على الطريقة الافريقية حول نار كبيرة اشعلنها من اوراق الشجر الجافة وراحت تعكس على وجوههن ضوءها الأحمر .

وما ان اكتملت دائرتهن حتى اخذت كل منهن بيد الاخرى ، وراحت اكبرهن سنا ، وكانت قد شبكت فى شعرها ريشة من جناح الطائر المعروف بمالك الحزين ، وصاحت تقول « أووانجا » وعرفت انهن سيمارسن نوعا من السحر معروفا بهذا الاسم ورددت الأخريات صيحتها « أووانجا » وبعد صمت قصير انتزعت زعيمتهن حفنة من شعرها والقت بها فى النار وهى تقول « سأذهب الى الشيطان » .

واقتدت الساحرات بزعيمتهن والقين فى النار بحفنة من شعورهن وهن يكررن قولها . واثارنى هذا الابتهال القريب وما صاحبه من تكشيرات مضحكة ، ولم اشعر الا وانا أضحك رغما عنى .

واضطربت الزنجيات ونهضن وهن مذعورات ، ولم يكن قد لاحظن وجودى حتى هذه اللحظة ، وأسرعن نحوى صاخبات وهن يصحن :

ــ الأبيض .. الأبيض .

ولم يسبق لى ان رأيت قبل ذلك اليوم وجوها مخيفة كما رأيت تلك الوجوه الغاضبة السوداء بأسنانها البيضاء وعيونها البيضاء بعروقها الكبيرة الدامية .

وتطايرت عيونهن شررا ، ورأيت انهن ينشدن تمزيقى ولكن زعيمتهن صاحت بهن : النظام .. النظام .. فتوقفن فجأة ورأيتهن

يخلصن مراولهن ويلقينها أرضا ويبدان حولى رقصة كان المفروض ان تثير ذعرى ويرشقنني بنظرات شذراء وهن ينشدن اغنيات يشوبها رنة من الشؤم تناقض مايبدو عليهن من غبطـــة وفرح . وكانت زعيمتهن العجـوز تثير حمـاسهن بعزفها على ناى غليظ اشبه بمزمار الراعى يصدر منه تأوهات حادة طـويلة ، وكانت كل منهن عنـــدما كانت رقصتها تدنيها منى تضحك فى وجهى ضحكة رهيبة مخيفة فتسرى القشعريرة فى بدنى كله .

تذكرت عندئذ عادة الشعوب الهمجية التى ترقص حول الاسرى قبل ذبحهم ، ولم يسعنى الا ان ادع هؤلاء النسوة يفرغن من رقصة الموت التى لم يكن لدى ادنى شك فى نتيجتها الحتمية . ومع ذلك لم اتمالك نفسى من ان ارتعد عندما رايت كلا منهن فجأة تضع فى النار نصل سيف او بلطة او طرف مسلة طويلة او منشارا .

واوشكت الرقصة ان تنتهى ، واصبحت ادوات التعذيب حمراء كالجمر ، واشارت العجوز الى الزنجيات وراحت كل منهن تتناول الاداة التى وضعتها فى النار ، وعنـــدئذ ادركت فى وضـــوح ما ينتظرنى من عــذاب وايقنت ان كل زنجيـة منهن ســتكون جلادا لى . واصـــدرت العجـــوز اشـــارة اخرى فبـدان رقصة جديدة دائرية وهن يصحن صيحات مخيفة . واطبقت عينى حتى لا ارى وجوههن البشعة الشيطانية وادوات التعـــذيب التى يتطاير منها الشرر وانتظرت متوترا اللحظة التى احس فيهـا بجسدى وهو يتمزق وسرت القشعريرة فى كيانى . وكانت لحظـــة رهيبة حقا .

ولكنها لم تطل لحســن الحظ ، فما ان همت النســوة بالانقضاض على حتى سمعت من بـــعيد صوت الزنجى الذى اسرنى . كان يركض نحونا وهو يصيح :

ـــ ماذا تفعلن بأسيرى ايتها اللعينات ؟ .. ماذا تفعلن ؟ .. اتركن اسيرى .

فتحت عينى . كان النهار قد طلع . واسرع الزنجى نحونا وهو يأتى باشارات غاضبة . وكانت الساحرات قد توقفن . ولكن لم يبد عليهن اى تأثر من تهديداته وانما بدا عليهن الذهول وهن يرين الرجل الذى يصاحب الاسود .

كان رجلا ضخم الجسم قصير القامة . كان قزما يخفى وجهه خلف قناع ابيض به ثلاثة ثقوب فى مواضع الفم والعينين على طريقة النساك الزاهدين . وكان هذا القناع يغطى وجهه وعنقه وكتفيه وصدره المكشوف الذى بدا كأن اظافرا قد خدشته وتتدلى فوقه ايقونة فضية معلقة فى سلسلة ذهبية . ورايت مقبضا على هيئة صليب لخنجر معلق بحزام فى وسطه يربط جونلة مخططة بخطوط خضراء وصفراء وسوداء تنتهى بشرابات حتى قدميه الكبيرتين المشوهتين . وكان عارى اليدين كصدره ، وفى يمناه هراوة بيضاء وتتدلى من حزامه مسبحة بجوار الخنجر ، ويضع على راسه قبعة ذات اجراس لم ادهش عندما عرفت فيها قبعة هابيبراه ، ولحظت ان القبعة ملوثة ببقع من الدم ولم يتطرق الى الشك فى انه دم المهرج المخلص . وبدت لى هذه القبعة دليلا جديدا على موته ، واثارت فى نفسى حسرة جديدة .

وعندما رات الزنجيات هذا الرجل سجدن وهن يصحن فى صوت واحد « الاوبى » اى الساحر الافريقى .

وادركت ان هذا الرجل هو الساحر فى جيش بياسو .

قال لهن فى صوت اجش آمر : كفى .. كفى .. اتركن اسير بياسو .

نهضن صاخبات والقين باسلحة الموت واخذن مراولهن ، وابدى الساحر اشارة تفرقن بعدها كما لو كن جيشا من الجراد .

وتفرس الساحر فى وجهى عندئذ ولم يلبث ان اجفل وارتد خطوة الى الوراء ورفع هراوته نحو الزنجيات كما لو كان يريد ان يدعوهن وسمعته يغمغم بين شفتيه بكلمة « الملعون » ثم همس ببضع كلمات

فى اذن الاسود ومضى بعد ذلك عاقدا ذراعيه مطرقا براسه كما لو كان قد استغرقته الافكار .

– ٢٧ –

اخبرنى حارسى عندئذ ان بياسو يريد ان يرانى وان امامى ساعة لكى استعد لهذه المقابلة التى ستكون قطيعة دون شك .

ولكن كان معنى ذلك اننى سابقى على قيد الحياة ساعة اخرى . وفى انتظار ذلك راحت عيناى تدوران فى معسكر المتمردين . وكان نور النهار يبين ادق نقاطه ، ولو اننى كنت فى حالة ذهنية اخرى فاننى ما كنت لأستطيع ان امنع نفسى من ضحك متواصل بسبب غرور السود فقد كانوا يبدون جميعا فى ازياء عسكرية وكهنوتية سلبوها من ضحاياهم ، وكانت اكثر الازياء عبارة عن خرق ممزقة مصبوغة بالدماء .. قطعة من الدانتللا تزين سيفا ، وشرائط مختلفة الالوان يلقونها حول اكتافهم ، وكانوا يجلسون فى جمود وبلا حراك . ولا ريب انهم كانوا يستريحون بذلك من الاعمال التى كانوا مجبرين على انجازها طوال حياتهم . كان بعضهم ينام فى العـــــراء تحت الشمس ، ورءوسهم بجوار نار محتدمة ، وآخرون عيونهم اما باهتة واما غاضبة ، يغنون اغنية رتيبة وقد جلسوا القرفصاء على عتبات اكواخهن المقامة من اوراق الموز بأشكال مخروطية تشبه خيامنـــا . ونساؤهم السوداوات او الملوحات تعد طعام المقـــاتلين بمساعدة اولادهن . كنت اراهم يحركون الانيام (جنس من النبات النشوى يؤكل) والموز والبطاطس والبسلة وجوز الهنـــد والذرة والكرنب وانواع اخرى كثيرة من الفاكهة البلدية تطهى مع لحـــــوم الخنزير والسلحفاة والكلاب فى مراجل كبيرة سرقوها من بيوت المزارعين . وعلى بعد ، فى حدود المعسكر جلس السحرة والســاحرات فى حلقات كبيرة حول النيران . وكانت الريح تأتينى بمقاطع من اغانيهم

البربرية . وبعض الحراس جلوس فوق قمم الصخور المجاورة ينيرون ارباض القيادة العامة لبياسو . وكان الحصن الوحيد ، فى حالة الهجوم ، عبارة عن شريط دائرى من الأوتاد والعـــربات المحملة بالاسلاب والذخيرة .. هؤلاء الحراس السود كانوا يقفون على قمم الصخور العالية التى تكسوها الاعشاب والاشواك ويرددون بصفة مستمرة ، وبكل قواهم تلك الكلمة التى تصون ســـلام المعسكر : لا شئ .. لا شئ ..

وكانت بعض جماعات من الزنوج الفضوليين تتجمع حولى من وقت لآخر وينظرون الى نظرات كلها وعيد وتهديد .

— ٢٨ —

واخيرا ، جاءت فصيلة من الجنود الملونين المدججين بالسلاح . وفك الزنجى الذى يبدو اننى ملكه القيد الذى يربطنى الى الشجرة ، وسلمت لرئيس الفصيلة ، واعطاه هذا الاخير كيسا ضخما مقابل ذلك أسرع بفتحه . كان فيه بعض النقـــود . واصطحبت الجنـــود معهم فى حين جلس الزنجى يعد نقوده فى طمع . وتأملت ثيابهم فى فضول كانوا يرتدون زيا من الجوخ الاحمر والاصفر على الطريقة الاسبانية ويضعــون فوق رءوسهم قبعة ثلاثية الالوان على الطراز الاسبانى هى الاخرى تزينها شارة حمراء ، وكانوا يحملون فـــوق ظهورهم بدلا من الجربندية كيسا عاديا . اما أسلحتهم فكانت عبارة عن بندقية ثقيلة او سيف أو خنجر . وقد علمت بعد ذلك أن هذا الزى هو زى الحرس الخاص ببياسو .

قادنى حراس حتى مدخل مغارة نحتتها الطبيعة اسفل شق من هذه الشقوق ، وكانت هناك ستارة كبيرة من ذلك القمـــاش الاسيوى المعروف باسم الكاشمير المشهور بملمســه النـــاعم الرقيق ورسوماته المختلفة والوانه الرائعة ، تخفى عن الابصار ما بداخل هذه المغارة .

وكان يحيط بها طوابير عديدة من الجنود المدججين بالسلاح اشبه بهؤلاء الذين جاءوا بى .

وكان هناك قنديل ذو خمس شعب معلق بالسلاسل فى القبة ، يلقى ضوءا متذبذبا فى جوانب المغارة الرطبة التى لا تدخلها الشمس ، وبين صفين من الجنود الخلاسيين رايت رجلا ملونا يجلس فوق جذع ضخم لشجرة من اشجار الاكاجو يكسوه تقريبا بساط ريش الببغاء . كان هذا الرجل ينتمى الى جنس السكاترا الذى لا يميزه عن جنس الزنوج غير لمسة خفيفة من اللون تكاد لا تلحظ ، وكان زيه مضحكا ، فقد كان يضع حول وسطه حزاما من الحرير المجدول يربط به سروالا ازرق من القماش الخشن وسترة من الحرير الابيض ، قصيرة جدا بحيث لا تصل الى الحزام ، وفى قدميه حذاء اسمر وعلى راسه قبعة مستديرة فى اعلاها ريشة حمراء وكتفيتين احداهما من الذهب فى وسطها نجمتان من الفضة ، وهى شارة المرافق والاخرى من الصوف الاصفر مثبت بها نجمتان من القماش تبدوان كانهما شوكتا مهمازين لا ريب انهما وضعتا فى مكانهما هذا لكى تجعلا الكتفية الثانية جديرة بصاحبتها . ولم تكن هاتان الكتفيتان فى موضعهما الطبيعى وانما كانتا تتدليان على كل ناحيه من صدره ، والى جواره ، على بساط الريش سيف مرصع وغدارتان مرصعتان هما الاخريان .

وخلف مقعده يقف غلامان ساكتان جامدان يلبسان زى العبيد ويحمل كل منهما مروحة كبيرة من ريش الطاووس . وكان هذان الغلامان من البيض .

وقطعتان مربعتان من المخمل الاحمر يبدو انهما علامة لمقعدين لاثنين من رجال الزعيم ، واحدة على اليمين والاخرى على اليسار . واحد هذين المقعدين يجلس عليه الساحر الذى انقذنى من الساحرات . وكان يجلس وقد ثنى ساقيه ، وهراوته فى يده . وكان ساكنا كما لو كان صنما فى معبد ، وكنت ارى عينيه المتقدتين من خلال ثقبى قناعه وهما تتفرسان فى .

وفى كل ناحية حول الزعيم اعلام معلقة بينها العلم الابيض المزخرف بزهور الزنبق والعلم الثلاثى الالوان والعلم الاسبانى . اما الاعلام الاخرى فكانت عبارة عن شعارات مختلفــــة رأيت بينها علما كبيرا اسود .

وفى آخر المغارة ، فوق راس الزعيم لفت نظرى شىء ... وهو صورة الخلاسى اوجيه الذى صدر الحكم باعدامه فى مدينة الكاب فى العام الماضى لاتهامه بالتمرد هو ومساعده جان باتيست وعشرين زنجيا . واوجيه هذا ابن قصاب كان يبدو فى الصورة بالزى الذى اعتاد ان يلبسه وهو زى ضابط كولونيل على صــدره صليب سان لويس وصليب الاستحقاق ، وهو زى اشتراه فى اوروبا من امير ليمبورج .

اما الزعيم نفســه ، الذى وقفت امامه فكان متوسط القامة فى وجهه الخسيس مزيج من الرقة والقسوة . وادنانى منه وتأملنى بعض الوقت فى صمت واخيرا ابتسم ابتسامة خبيثة وقال : انا بياسو .

وكنت اتوقع هذا الاسم ، ولكننى لم استطع ان اسمعه من هاتين الشفتين وعليهما هذه الابتســامة الخبيثة دون ان ارتعد . غير ان وجهى بقى على هدوئه وكبريائه . ولم انطق .

قال بفرنسية ركيكة : حسـنا . هل اصابك الشلل فلا تستطيع ان تحنى عمودك الفقرى وانت فى حضرة جان بياسو ، القائد العام للجيوش المحتلة والفريق فى جيش جلالة الملك ؟

وكان الزعماء الثائرون يزعمون تارة انهم نواب ملك فرنسا وتارة اخرى انهم نواب قادة الثورة او نواب ملك اسبانيا .

وعقدت ذراعى على صدرى وحدقت فى وجهه فكشر عن انيابه وقال : اوه ، اوه ... يبدو لى انك رجل شجاع . حسنا . اصغ اذن الى ما سوف اقول لك . هل انت من المولدين البيض ؟

اجبته : كلا . انا فرنسى .

– حسنا . ارى انك ترتدى زى الضباط ، فكم عمرك ؟

– عشرون سنة .

– متى بلغتها ؟

اثار هذا السؤال ذكريات حزينة فى نفسى وبقيت لحظة غارقا فى افكارى فكرره فى حدة فاجبته :

– فى نفس اليوم الذى شنق فيه زميلك ليجورى .

تقلصت عضلات وجهه لفرط الغضب وكشر عن انيـــابه للمرة الثانية ، ولكنه تمالك نفسه مع ذلك وقال :

– لقد مضت ثلاثة وعشرون يوما على شنق ليجورى . ايهـــا الفرنسى ، سوف تقول له الليلة انك عشت بعده اربعة وعشرين يوما ، فاننى اريد ان ابقى عليك هذا اليوم لكى تستطيع ان تروى له كيف حصل اخوانه على حريتهم وما تراه فى معسكر جان بياسو القائد العام ومدى سلطة هذا القائد على رجال الملك .

كان جان بياسو وزميله جان فرانسوا يطلقـــان هذا اللقب على جموعهما من المتمردين السود والخلاسيين .

وامر عندئذ ان يعدوا لى مكانا بين حارسين فى ركن المغارة ، ثم اشار بيده الى بعض الزنوج الذين يرتدون زى المساعدين وقال :

– فليجتمع الجيش امام المركز العام للاستعراض .

واردف يقول وهو يتحول الى الساحر : وانت ايها الكاهن . ارتد ثيابك الكهنوتية واحتفل معنا ومع جنودنا بالقداس المقدس .

نهض الساحر وانحنى امام بياسو باحترام كبير وهمس فى اذنيه ببضع كلمات فقاطعه الزعيم فجاة قائلا بصوت مرتفع :

– تقول انه ليس لدينا هيكلا للصلاة ؟ وهل هذا بالامر الغريب فى الجبال ؟ ولكن ما عليك فليس الله بحاجة الى هيكل لكى نعبده ، وليس بحـــاجة الى مذبح مزين بالذهب والدانتللا . ان يوشـــع والخضر عبداه فى الخلاء وفوق الاحجار ، فلنقتد بهما ايهـــا الأب الطيب . ان الله يكفيه ان تكون القلوب سليمة ورعة . تقول انك

بحاجة الى هيكل ؟ الا يمكن ان تتخذ هيكلا من صندوق السكر الكبير الذى غنمه رجال الملك امس من املاك دوبويسون ؟

ونفذت اوامر بياسو على الفور ، ففى اقل من طرفة عين اعدت المغارة لكى تكون هيكلا للصلاة ، فغطوا الصندوق بملاءة بيضاء عليها هذه العبارة « دوبويسون وشركاه بنانت » ووضعوا فوقه الآنية المقدسة التى سرقوها من كنيسة الاكول ، وهى نفس الكنيسة التى اقيم فيها الاحتفال بزفافى . ورأى الساحر عندئذ انه بحاجة الى صليب فأخرج خنجره ، وكان مقبضه على هيئة صليب كما سبق القول ونصبه بين الآنية ووضع ثوب الكاهن المسروق من نفس الكنيسة على ظهره دون ان يكشف القناع عن وجهه وفتح كتاب الصلاة ثم تحول الى بياسو ، وكان يجلس على بعد خطوات من الهيكل ، وقال له انه على استعداد .

واتى الزعيم باشارة من يده على الفور فرفعت الستارة الكاشمير كاشفة عن الجيش الاسود كله ، وكان يقف فى اربعة صفوف طويلة امام باب المغارة . ورفع بياسو قبعته المستديرة وجثا بجوار الهيكل وصاح فى صوت قوى : اسجدوا .

وصاح الزعماء بجنودهم : اسجدوا .

ودوت الطبول على الفور ، وركعت الجنود كلها ، وبقيت انا وحدى ، جالسا فوق مقعدى ، ساكنا ، ناقما على ذلك التجديف الفظيع الذى يرتكبونه امامى . ولكن الخلاسيين اللذين يحرسانني جرا مقعدى الى جوار المقعد ودفعانى من فوقه فسجدت رغما عنى .

وتلا الساحر صلاته ، وقام الغلامان الابيضان بمهمة الشماس ومساعده . وكانت جموع المتمردين ما زالت راكعة تستمع الى الصلاة فى احترام . وعندما فرغ الساحر من صلاته رفع القربان بين يديه وتحول الى الجنود وصاح :

ـ انكم تؤمنون بالله الطيب .. وانه هو الذى اريكم اياه .. ان البيض قتلوه فاقتلوه البيض .

نطق بهذه الكلمات بصوت قوى خيل لى اننى سمعته فى مكان ما وفى مناسبات اخرى . واطلقت الجموع صيحة مدوية وتلاحمت سيوفهم ولولا وجود بياسو لكانت نهايتى فى تلك اللحظة .

وادركت مدى الشجاعة والفظاعة التى يمكن ان نقود الرجال الذين لا يؤمنون الا بالخنجر والذين يسهل التاثير عليهم .

- ٢٩ -

وعندما انتهت الصلاة تحول الساحر الى بياسو وانحنى امامه فى احترام . ونهض الزعيم عندئذ وخاطبنى بالفرنسية قائلا :

- انهم يتهموننا بانه لا دين لنا ، وهانت ترى ان قولهم هذا انما هو فرية واننا مسيحيون طيبون .

ولا ادرى هل كان جادا فى كلامه او كان يهزل . وبعد لحظة امر ان يأتوه باناء زجاجى مملوء بحبوب الذرة السوداء والقى فيه ببضع حبوب بيضاء ثم رفع الاناء فوق راسه لكى يراه كل الجنود وقال :

- أيها الاخوان . انتم الذرة السوداء اما البيض فهم الذرة البيضاء .

وبعد ان انتهى من هذه الكلمات راح يحرك الاناء ، وعندما اختفت الحبوب البيضاء تحت الحبوب السوداء تقريبا صاح كمن يتكلم عن وحى والهام :

- ترون الآن مدى قوة البيض امامكم .

صيحة جديدة رددها الصدى فى كل انحاء الجبل . واستطرد بياسو يقول :

- لقد مضى وقت الرقة والمجاملات ، وقد صبرنا كثيرا كالخراف، وكان البيض يشبهون صوفها بشعورنا . ولكن الآن قساة القلوب ، غلاظها كالنمور والفهود التى تعيش فى البلاد التى انتزعونا منها . ان القوة وحدها هى التى تستطيع ان ترد لنا حقوقنا ، وكل شىء يمكن أن يكون ملكا لمن هو قوى لا يعرف الرحمة .

واسترسل يقول : لقـــد جاءوا ... لقد جاءوا أعداء التقـــدم والانسانية .. هؤلاء البيض ، هؤلاء المستعمرون ، هؤلاء المزارعون ... هؤلاء التجار . لقد جاءوا بوقاحتهم وبثيابهم الزاهية واسلحتهم واحتقرونا لاننا سود وعراة. خيل لهم كبرياؤهم انهم يستطيعون تفريق شملنا بسهولة كما يفرق ريش الطاووس اسراب الذباب . ولـكن جيشنا انقض عليهم انقضاض النمل على احدى الجثث ، وسقطوا بثيابهم الجميلة تحت ضربات سواعدنا العـارية التى كانوا يحسـون انها تفتقر الى القوة ، وهم لا يعلمون ان الخشب الجيد يكون اقوى عندما تنتزع منه قشوره . ان هؤلاء الطغاة الملاعين يرتعدون فرقا الآن .

ردت على قوله هذا صيحة فرح وانتصار وراح الجميع يكررون عبارته الاخيرة : انهم يرتعدون فرقا .

واردف بياسو يقول : ايها الخلاسيون ، وانتم ايها الكونجوليون، فكروا الآن فى الانتقام وفى الحرية . وانتم ايها المولدون لا تأخذكم بهم الرحمة ، واعلموا انهم لم يعاملوكم ابدا معاملة الاب لاولاده وانمـا معاملة السيد لعبيده . كنتم عبيدا لهم كالسـود تماما . وبينما كانوا يضنون عليكم بالثياب الا ما يكاد يستر عوراتكم كانوا هم يرفلون فى احسن زينة. العنوا هؤلاء الآباء القسـاة ، ولكن لا تقتلوا آباءكم بايديكم كما يقول المسيح واذا التقيتم بهم فى صفوف الاعـداء فمن الذى يمنعكم أيها الاصدقاء من ان يقول كل منكم للآخر : اقتل ابى فاقتل انا اباك .. الانتقام يا رجال الملك .. الحرية للجميع . ان لهذه الصيحة صداها فى جميع الجزر . لقد بدات من سانتو دومينجو وايقظت تاباجو وكوبا ، وان الذى رفع الراية بيننا هو بوكمان ، وهو زعيم اسود لمائة وعشرين زنجيـا من جمايكا . وكان النصر اول عمل له مع زنوج سانتو دومينجو .. فلنقتد به ، حاملين المشعل فى يد والبلطة فى الاخرى . لا ترحموا البيض . اذبحوا عائلاتهم ودمروا املاكهم . لا تتركوا فيها شجرة واحدة . اقلبوا الارض لكى تبتلع

البيض . تشجعوا ايها الاصدقاء والاخوان . سنمضى قريبا لقتالهم وابادتهم . سننتصر او نموت ، فاذا انتصرنا فسوف ننعم بكل ملذات الحياة . اما اذا متنا فسوف نمضى الى السماء ، حيث ينتظرنا فى الجنة كل القديسين ، وحيث يكون نصيب كل منكم حصة مضاعفة من الخمر .

هذه الخطبة العسكرية التى تبدو لكم سخيفة ايها السادة كان لها اكبر الاثر فى نفوس المتمردين . وصحيح ان التمثيلية الايمائية التى قام بها بياسو ، والحماسة التى صاحبت صوته والتقلصات العجيبة التى ارتسمت على قسمات وجهه ، كان لكل ذلك تاثير عجيب وقوة سحرية لا استطيع ان اصفهما ، فقد ارتفع الصراخ والصياح والهتاف . وراح البعض يضربون صدورهم بايديهم ، والبعض الآخر يلوحون بهراواتهم وسيوفهم . وبقى كثيرون منهم سجدا وهم فى نشوة لا يتحركون ولا ينطقون . ودوت الطبول وارتفعت اصوات المزامير وامتزجت بطلقات الرصاص . بدا لى ان الشياطين قد شقت الارض وقلبت الدنيا راسا على عقب .

واتى بياسو باشارة من يده فساد السكون كما لو وقعت معجزة ، وعاد كل زنجى الى مكانه فى صمت . وهذا النظام الذى فرضه بياسو على مواطنيه بالتاثير على عقولهم واراداتهم ملأنى اعجابا فقد بدا لى ان كل جنود هذا الجيش من المتمردين يتكلمون ويتحركون تحت يد الزعيم كملامس البيان تحت اصابع الموسيقى الموهوب .

وهذا منظر آخر .. نوع آخر من الشعوذة والافتتان اثارا اهتمامى ، واعنى به تضميد الجراحات . كان الساحر يقوم فى الجيش بوظيفة مزدوجة وهى طبيب للروح وطبيب للبدن . وكان يبدا بفحص المرضى بعد ان يخلع ثياب الكهنوت ، وبجواره صندوق

كبير به عيون كثيرة تزخر بالعقاقير والادوات ، وكان نادرا ما يستخدم هذه الادوات ، وفيما عدا حسكة كان يستعملها بمهارة فى الفصادة كان يبدو اخرق فى استخدام الكلابة بدلا من الملقط والسكين بدلا من المشرط .

وكان يقتصر طوال الوقت على وصف التليو وعصير الليمون والبرتقال وخلاصة بعض الاعشاب البرية وبضع جرعات من النبيذ . وكان الدواء الاثير لديه والذى يزعم انه البلسم الشافى يتكون من ثلاث كئوس من النبيذ الممزوج بمسحوق جوز الهند وجوز الطيب وصفار بيضة مشوية تحت الرماد . وكان يستخدم هذه الوصفة لشفاء كافة انواع الجروح والمرض .

وتعلمون طبعا ان هذا الدواء مدعاة للسخرية التامة ، تماما كالعبادة التى يزعم انه مكرس لها . ومن المحتمل ان العلل القليلة التى تم شفاؤها على يديه ما كانت لتكفى لكى يبقى السود على ثقتهم به لو لم يضم الشعوذة الى عقاراته ولو لم يحاول ايهام السود والتأثير على عقولهم ،فقد كان يقتصر احيانا على مس جراحهم وهو يقوم ببعض الحركات الصوفية ، واحيانا اخرى كان يحسن استخدام الخرافات القديمة ويمزجها باعتقاداتهم الدينية الحديثة ، ويضع فى الجرح حجرا صغيرة ملفوفا فى قطعة من الشاش يؤمنون بأن له قوة السحر ، وينسب المريض شفاءه عندئذ الى قوته السحرية ، واذا جاءه احد وقال له ان الجريح الذى عنى به مات متأثرا بجراحه او من ضماداته اسرع يقول فى لهجة متكبرة .

ــ كنت اتوقع ذلك . انه خائن ، فقد انقذ رجلا ابيض فى الحريق الذى شب فى مسكن فلان ، وان موته لقصاص على ذلك .

ويصفق المتمردون عندئذ وهم مبهورون وقد ازدادت كراهيتهم للبيض ، ورغبتهم فى الانتقام منهم . وقد استخدم الدجال وسيلة اخرى لشفاء المرضى ادهشتنى غرابتها ، فقد جاءه احد زعماء السود وقد اصيب بجرح خطير فى المعركة الاخيرة . وفحص الساحر الجرح طويلا وضمده بقدر استطاعته ثم صعد الى المذبح وقال :

ـ كل هذا لا شيء .

ثم مزق ثلاث او اربع ورقات من الكتاب المقدس الذى سرقه من كنيسة الاكول وحرقها ومزج رمادها ببضع قطرات من النبيذ صبه فى كوب وقال للجريح : اشرب من هذا الشفاء .

وشرب الآخر فى غباء وهو يحدق بعينيه الحافلتين بالثقة فى الدجال الذى رفع يديه الى السماء كما لو ليدعو الله ان يباركه . وربما ساهم اعتقاد المريض فى شفائه .

ـ ٣١ ـ

ثم منظر آخر كان الساحر المقنع الممثل الرئيسى له ، ففى المنظر السابق حل الطبيب محل الكاهن ولكن فى هذا المنظر حل الساحر محل الطبيب ، فقد صاح القزم صيحة كبيرة وهو يثب فى خفة فوق الهيكل حيث وقع فوقه جالسا وساقاه ملتويتان فى جولته المخططة .

ـ اسمعوا ايها الرجال . اسمعوا .. من اراد منكم ان يقرا فى كتاب القدر مستقبل حياته فليقترب .. ساقول له اننى درست علوم المصريين .

واسرع اليه عندئذ جمهور من السود والخلاسيين .

قال الساحر بذلك الصوت الاصم الذى خيل لى اننى سبق ان سمعته :

ـ واحد واحد .. اذا اتيتمونى جميعا معا فستدخلون القبور معا .

وتوقفوا على الفور ، وفى هذه اللحظة اقترب من بياسو رجل ملون يرتدى ثيابا بيضاء ويضع على راسه مدراسا على طريقة المستعمرين الاثرياء وينطق وجهه بالاستياء . وساله القائد فى صوت خافت : حسنا .. ما الخبر ؟ .. ماذا بك ياريجو ؟

كان الرجل هو الزعيم الخلاسى لجيوش كاريز ، وكان معروفا باسم الجنرال ريجو ، وهو رجل شديد الدهاء ، يخفى دهاءه تحت ستار من السذاجة ، وقسوته تحت ستار من الرقة واللين . ورحت افحصه فى اهتمام :

اجاب يقول فى صوت خافت جدا لم يفت اذنى لاننى كنت على مقربة من بياسو :

– ايها القائد .. جاء الى المعسكر رسول من جان فرانسوا يقول ان بوكمان قتل فى اشتباك مع مسيو دى توزار وانهم قطعوا راسه ونصبوها فى المدينة افتخارا بانتصارهم .

قال بياسو وقد لمعت عيناه بفرحة خفية لنقص عدد الزعماء وارتفاع قدره : اهذا فقط ؟

– ومع رسول فرانسوا رسالة اخرى يريد ان يسلمك اياها .

عاد بياسو يقول : حسنا .. خل عنك هذا الشحوب يا عزيزى ريجو .

قال ريجو معترضا : الا تخشى من سوء وقع هذا الخبر على جيشك ؟

اجاب بياسو : انت لست غبيا كما يبدو عليك يا ريجو . انت لا تعرف قدر بياسو بعد . اخر دخول الرسول ربع ساعة فحسب .

ودنا بعد ذلك من الساحر ، ولم يكن قد سمع ما سمعته ، اذ كان قد بدا عمله كمطلع على الغيب ، وراح يسال الزنوج المبهورين ويفحص العلامات التى على جباههم وايديهم ويوزع عليهم السعادة تقريبا طبقا لرنين وضخامة القطعة النقدية التى يلقيها العبد امامه فى طبق من الفضة ويستانف الساحر عملياته المربحة دون ان يقطع تنبؤاته .

قال : ان تعرج الخط الذى على جبينك يدل على انك سوف تصيب ثروة كبيرة من غير اى جهد او عناء .

« أما ذلك الذى يحمل ثلاث تجعيدات ملتوية فذلك نذير شؤم »

وصاحبها سوف يغرق لا محالة اذا لم يتجنب الماء جهد استطاعته .

« اما الخطوط الاربعة التى تنطلق من الانف وتتلاقى كل اثنين منها فوق العين فذلك دليل على ان صاحبها سيقع اسير حرب ذات يوم وانه سيبقى فى الأسر طوال حياته .

وامسك لحظة ثم استطرد يقول فى لهجة خطيرة : وقد لحظت هذه العلامة ايها الرفيق على جبين بوج جارجال ، زعيم رجال المورن دوج البواسل .

واكدت لى كلماته هذه مرة اخرى أن بوج جارجال وقع اسيرا ، وقد تبع قول الساحر همهمة وحزن جماعة من السود يرتدى زعماؤهم سراويل حمراء . كانت هذه الجماعة هى جماعة بوج جارجال .

وعاد الساحر يقول : اما اذا كان هناك على الجبين ما يشبه الشوكة فان صاحبها سوف يبقى عاطلا او مدمنا للشراب .

قاطعه زنجى اسبانى من سانتو دومينجو متقدم فى السن ، طلب منه وهو يجر قدميه ضمادة . كان قد اصيب بجرج فى جبينه واقتلعت احدى عينيه من محجرها وتدلت دامية . وكان الساحر قد نسيها اثناء دورته الطبية . وعندما وقع بصره عليها صاح

– وحلقات مستديرة على الجزء الايمن من الجبين ، على خط القمر دليل على مرض فى العيون .

ثم انثنى الى المريض المسكين وقال له : اى صديق . ان هذه العلامة واضحة على جبينك . دعنى أرى يدك .

اجابه الآخر : وا اسفاه ايها المولى العظيم .. افحص عينى .

رد عليه الساحر ضاحكا : اى صديقى العزيز ، سوف افحص عينك طبعا ، ولكن ارنى يدك .

وقدم له المسكين يده وهو لا يزال يتأوه : عينى .. عينى .

قال الساحر : اذا تواجدت على خط الحياة نقطة حولها

دائرة فمعنى ذلك ان صاحبها سيكون اعور لان هذه العــلامة دليل على فقد احدى العينين ، وانت يا صديقى ستغدو أعور .

اجابه العجوز وهو يئن من الالم : ولكننى اصبحت اعور .

غير ان الشاعر ، ولم يكن يعرف شيئا فى الجراحة ، ابعده فى خشونة واستطرد غير عابىء بالرجل المسكين .

ــ اسمعوا ايهــا الرجال .. اذا كانت الخطوط السبعة فــوق الجبين منعرجة غير واضحة فذلك دليل على ان حياة صاحبها ستكون قصيرة . اما من يحمل بين حاجبيه سهمين مشتبكين فسوف يموت فى معركة . وهنا لا املك الا ان اقول لكم ايها الاصدقاء ان بوكمان ، اشجع الشجعان ونصير الحرية يحمل على جبينه هذه العــلامة المشئومة . واذا كان خط الحياة الذى يخترق اليد ينتهى بصليب عند المفصل فهذا دليل على ان صاحبه سوف يشنق .

حبس جميع الزنوج انفاسهم عند سماعهم هذه الكلمات ونظروا الى الدجال فى افتتان ودهشة ، واردف هذا الاخير يقول :

ــ ولكن لا يسعنى التوفيق بين هاتين العلامتين اللتين تهددان بوكمان بخوض معركة وبالشنق فى وقت واحد ، ومع ذلك فان فنى فى قراءة المستقبل لا يمكن ان يخطىء .

وامسك عن الكلام وتبادل نظرة مع بياسو ، وهمس هذا الاخير ببضع كلمات فى اذن مساعده خرج هذا على اثرها على الفور . وعاد الساحر يقول بلهجته الخبيثة وهو يتحول الى سامعيه :

ــ اما الفم المفتوح والشفتان الذابلتان والنظرة البلهاء والذراعان المتدليان واليد اليسرى ملتوية الى الخارج دون ما سبب واضح فكل ذلك ينم عن غباء طبيعى وخواء وفضول بليد .

ضحك بياسو ، وعاد المساعد فى هذه اللحظة مصطحبا معه زنجيا يعلوه الوحل والغبار ، وقد تمزقت قدماه من الاشواك والحصى مما يدل على انه قطع مسافة طويلة فى المشى . كان هو الرسول الذى اعلن عنه ريجو . وكان يحمل فى يده رزمة مختومة وفى الاخرى

رق عليه ختم عبـــارة عن قلب مشتعل بداخله حرفان متشابكان يشيران الى الحرفين الاولين من كلمة « الزنوج والخلاسيين » . وتحت الختم هذه العبارة : « انهزم العدو وتحطم الاستبداد . يحيا الملك » . كان هذا الرق هو جواز المرور الذى سلمه جان فرانسوا للرسول . وقدمه هذا الاخير لبياسو ، وبعد ان انحنى حتى كاد جبينه ان يلمس الارض اعطاه الرزمة المختومة ففضها بياسو وقرا الرسائل التى بها ، ووضع احداها فى جيبه ثم دعك الباقية فى يديه وصاح فى صوت حزين :

— اى رجال الملك !

انحنى الجميع فى احترام ، وعاد بياسو يقـــول : اى رجال الملك ، اليكم الرسالة التى ارسلها جان فرانسوا ، اميرال فرنسا وقائد جيوش ملك اسبانيا الى جان بياسو القائد العـام لجيوش البلاد المحتلة .

« انهزم بوكمان ، الزعيم النبيل ، زعيم المائة والعشرين زنجيا من جمايكا والذى اعترفت به حكومة الجنرال بل كولومب ، وقتل فى الاشتباك الذى دار بينه وبين السافل توزار وقطعت راسه وعلقت فى مدينة الكاب .. » ولابد لنا الآن من الانتقام .

قوبلت هذه الكلمات بصمت عميق يشوبه يأس اشد عمقا ، ولكن الساحر اعتدل فى هذه اللحظة فوق الهيكل وهز عصاه البيضاء دليلا على الفوز وقال :

— ان علوم العرافين لم تخدعنى .. ايها الاصدقاء والاخوان ، وانتم جميعا يا من هنا ، بماذا تنبات ؟ وماذا قلت ؟ ان العلامات التى على جبين بوكمان انباتنى بأن عمره قصير وانه سيموت هنا ، فى معركة . كما انباتنى خطوط يده بانه سيموت شـنقا ، وقـد تحققت تنبؤاتى تماما ومات بوكمان فى المعركة ثم شنق . افبعد هذا لا تصـدقوننى ؟

تبدل صمت الزنوج الذى قوبل به نبأ موت بوكمان الى اعجاب

كبير يشوبه خوف اكبر . وراح الساحر يمشى جيئة فوق الهيكل الكبير وقد أثمله الغرور والعجب ، وضحك بياسو وقال يخاطبه :

– ما دمت تعرف الغيب يا سيدى الكاهن فقل لى ماذا يخبىء المستقبل لجان بياسو ، القائد العام .

توقف الساحر فوق الهيكل فى تيه وفخر ازاء اعجاب الزنوج ، وقال للقائد :

– تفضل يا صاحب الفخامة :

كان الساحر القزم فى هذه اللحظة اهم رجل فى الجيش كله .. واقترب بياسو منه وفى عينيه شىء من خيبة الامل والحسد . وخاطبه الساحر قائلا :

– يدك يا سيدى .

وانحنى لكى يمسك بها ثم قال : هاندا ابدا . ان هذا الخط الطويل فى راحتك دليل على الرخاء والسعادة ، وخط الحياة ينبىء عن حياة طويلة ناعمة بعيدة عن المصائب والآلام ، وعن شيخوخة هادئة . وهذا الخط المستقيم القصير يدل على حكمة عالية وسخاء وكرم كبيرين ، وارى اخيرا ما يجمع العرافون عليه ويقولون عنها انها اسعد العلامات واعنى بها مجموعة من الخطوط الصغيرة على صورة شجرة وارفة تصل الى اعلى اليد وتدل على دوام النعمة والتودد ، وخط الصحة طويل يؤكد انك ستعمر طويلا ، وخط الحياة يشير الى حياة زاهرة عامرة بالاعمال الجليلة .

وما ان فرغ الساحر من قوله هذا حتى حول بصره وحدق فى ، ولاحظت مرة اخرى ان صوته مألوف لدى . واستطرد يقول :

– ولكن خط الصحة تحوط به بضع دوائر صغيرة مما يدل على انك ستنجز اعمالا ضرورية يمليها عليك الواجب ، وهو يتوقف فى منتصف الكف مكونا نصف دائرة ، وهذا دليل على انك ستتعرض

لاخطار كثيرة على يد الوحوش الكاسرة ، واعنى بهم البيض ، اذا انت لم تسرع الى ابادتهم . وخط الحظ تحيط به اغصان صغيرة ترتفع حتى اعلى اليد ، دليل على مستقبل العظمة والسيادة الذى ينتظرك ، وهو مستقبل لا يعوقه شيء فى الجزء العلوى مما يدل على موهبة فى الحكم . اما الخط الخامس ، وهو خط المثلث فهو مستطيل وممدود حتى منبت الاصبع الوسطى ويعدك بالنجاح فى كل ما تقوم به من مشروعات . والآن ، دعنى ارى جبينك ايها القائد . ان علامة حدوة الحصان بين الحاجبين دليل على انك ستعرف كيف تنتقم للاهانة والاستبداد . وهذه العلامة موجودة فوق جبينى انا الآخر .

واثارت طريقة الساحر الذى نطق بها عبارته الاخيرة دهشتى ، واردف يقول فى نفس اللهجة :

— وهذه العلامة توجد عند الشجعان الذين يعرفون كيف يدبرون ثورة باسلة ويحطمون العبودية فى معركة . وان مخلب الاسد الموجود فوق حاجبك دليل على شجاعتك . ومن يحمل هذه العلامة يعرف كيف ينصر القضية التى يعالجها . والذين يتزعمهم مثل هذا الرجل لن يندموا ابدا او يتحسروا على اية خسارة ، فهو وحده يعادل كل رجال جيشه . وانت ذلك الذى وقع عليه اختيار القدر .

قال بياسو وهو يهم بالعودة الى مكانه : شكرا يا سيدى الكاهن .

استأنف الساحر يقول : مهلا ياجنرال . أوشكت ان انسى علامة اخرى . ان خط الشمس ظاهر على جبينك بصورة واضحة ، دليل على انك تحسن التصرف فى الامور ورغبتك فى اسعاد الناس وفى كرمك وسخائك وميلك الى الاسراف .

وبدا ان بياسو فهم ان السهو جاء منه هو لا من الساحر فاخرج من جيبه كيسا ضخما من النقود والقاه فى الطبق الفضى لكى لا تكذب علامة خط الشمس .

ومع ذلك فان طالع الزعيم السعيد كان قد احدث اثره فى الجيش فان كل المتمردين الذين اصبحت كلمة الساحر عليهم اقوى واشد من اى وقت مضى منذ ان جاءهم نبأ موت بوكمان تبدل يأسهم الى حماس كبير وراحوا يصيحون وقد وضعوا ثقتهم العمياء فى الساحر .

ـ يعيش الساحر .. يعيش بياسو .

وتبادل الساحر وبياسو النظر ، وخيل لى ان ابتسامة الساحر ترد على ابتسامة القائد العام . ولا ادرى لماذا شغل ذلك الساحر ذهنى فقد خيل لى اننى سبق أن سمعت فى مكان آخر صوتا يشبه صوته . واردت ان اتاكد فقلت :

ـ ايها الكاهن .. ايها الطبيب الكاهن .

تحول الى فجأة فقلت له : ما زال هنـــاك شخص لم تقرأ له طالعه ، وهو انا .

عقد ذراعيه على الشمس الفضية التى تغطى صدره الخشن ولم ينطق فقلت :

ـ وددت ان اعرف بم ينبئك مستقبلى ، ولكن زملاءك المخلصين سلبونى ساعتى ونقودى ، وانت لا تقرأ المستقبل مجانا .

دنا منى حتى كاد يلامسنى وقال فى صوت اصم : انتِ مخطىء . ارنى يدك .

بسطت كفى له وانا احدق فى وجهه . كانت عيناه تتألقان . وفحص يدى لحظة ثم قال :

ـ حين يكون خط الحياة مقطوعا فى النصف بعلامتين متعارضتين فمعنى ذلك موت قريب .. وعلى هذا فان موتك وشيك .

وحين يكون خط الصحة فى وسط اليد ويجتمع خط الحياة وخط الحظ فى منبتهما فهـذا معناه انه لا يجب أن تتوقع ميتة طبيعية . واذا اخترق الخط الذى يبدأ من تحت السبابة خط آخر فسوف يموت صاحبه ميتة عنيفة . هل تسمع ؟ .. استعد لكى تواجه ميتة عنيفة .

كان يشوب هذا الصوت الذى ينذر بالموت رنة مرحة . واصغيت الى صاحبه فى ازدراء وعدم مبـــالاة وقلت وانا ابتسم ابتسامة ساخرة :

ـ ايها الســـاحر .. انت ذكى ، ولا ريب انك تحسن قراءة المستقبل .

ازداد دنوا منى وقال : هل تشك فى علمى ؟ حسنا . اسمع اذن . ان خط الشمس فوق جبينك مقطوع ، وهذا دليل على ان لك عدوا هو صديقك فى الواقع وصديقا هو فى الواقع عدوك .

كان معنى العبارة الاخيرة يتركز حول بيبرو الخائن الذى احببته وغدر بى . أما الصـــديق الذى كنت أظنه عدوا فهو هابيبراه التى اثبتت ثيابه الملوثة بالدماء على انه مات بشجاعة واخلاص .

صحت بالرجل : ماذا تعنى ؟

اجاب : اصغ الى حتى النهاية . اننى قرات لك المستقبل وهانذا أقرأ لك الماضى . ان خط القمر ينحنى فوق جبهتك . وهـــذا معناه ان زوجتك قد اختطفت .

اجفلت ، واردت ان اهب من مقعدى ولكن حراسى منعونى وقال الساحر :

ـ انت لست صبورا فاستمع حتى النهاية . ان الصليب الصغير الذى فوق الخط المنحنى يدل على ان زوجتك اختطفت فى نفس اليوم الذى تزوجتما فيه .

صحت : ايها الشقى ... انت تعرف اين هى .. من انت ؟

وحاولت التخلص من حراسى وانتزاع قناعه ولكننى اضطررت مرة اخرى الى الخضوع للقوة والكثرة . ورايت الساحر يبتعـد وهو يقول :

ـ هل تصدقنى الآن ؟ .. استعد لموت وشيك .

ـ ٣٢ ـ

كان لابد من ان تقع هذه المأساة الجـديدة تحت عينى لــكى تشغلنى وتصرف ذهنى لحظة عن الحيرة التى اوردتنى فيها المهزلة السخيفة التى قام بها بياسو وشريكه امام الجنود .

كان بياسو قد عاد وجلس فى مقعده والساحر على يمينه وريجو على يساره وعقد الساحر يديه فوق صدره وبدا غارقا فى تأملات عميقة فى حين راح بياسو وريجو يمضغان التبغ . واقبل احد المساعدين يسال القائد ان كان يحب ان يسرح الجيش ، ولكن اقترب فى هذه اللحظة بالذات ثلاث جماعات من الزنوج من مدخل المغارة وهم يصيحون غاضبين . كان مع كل جماعة منهم اسير تريد تسليمه لبياسو لا لكى يعفو عنه وانما لكى تعرف نوع التعذيب الذى يحلو للزعيم ان يفرضه عليه . وكان صياحهم اكبر دليل على ذلك فقد كانوا يصيحون قائلين : الموت لهم .. الموت لهم .

امرهم القائد بالسكوت باشارة من يده ، وبأن يتقدم الاسرى الثلاثة الى عتبة الخيمة . ودهشت حين عرفت اثنين منهم فقد كان احدهما هو المواطن الجنرال كادو الذى اشار فى اجتماع المجلس بقطع رءوس جميع الزنوج . اما الآخر فكان المزارع الغامض الذى يبدى كراهيته للخلاسيين مع ان البيض يعدونه خلاسيا مثلهم . اما الثالث فكان يبدو انه ينتمى الى صغار العاملين . كان يرتدى مئزرا من الجلد وقد شمر عن ساعديه . وقد تم اسر الثلاثة ، كل على حدة وهو يحاول الاختفاء فى الجبال .

وكان العامل البسيط هو الذى استجوبه بياسو فى البداية فقد ساله قائلا : من انت ؟

— انا جاك بيلان ، نجار بمستشفى الآباء بالكاب .

ارتسمت فى عينى بياسو امارات الدهشة المشوبة بالخجل وقال وهو يجز على شفته السفلى : جاك بيلان ؟

اجاب الآخر : نعم . الا تعرفنى ؟

رد عليه القائد قائلا : ابدا انت بمعرفتى بان تحيينى .

قال النجار : اننى لا احيى عبدى .

صاح القائد العام : ويحك ! .. عبدك ايها الشقى ؟

اجاب النجار : نعم . انا اول سيد لك . تتظاهر بانك لا تعرفنى ؟

ولكن لا تنسى يا جان بياسو اننى بعتك بثلاثة عشر قرشا لتاجر من سانتو دومينجو .

انقلبت سحنة جان بياسو فى حين استطرد الابيض يقول : حسنا . يبدو انك تخجل لانك خدمتنى . افلا يجب على جان بياسو ان يفخر ويزهو لانه كان عبدا لجاك بيلان ؟ .. ان امك بالذات ، تلك العجوز المجنونة ، طالما نظفت حانوتى وكنسته . ولكننى بعتها اخيرا لمستشفى الآباء فقد شاخت واصبحت لا تقوى على الخدمة بحيث ان مدير المستشفى لم يرض ان يدفع لى فيها اكثر من اثنين وثلاثين جنيها . هذه هى قصتك وقصتها ، ولكن يبدو لى انكم اصبحتم متكبرين يا معشر الزنوج والخلاسيين وانك نسيت الوقت الذى كنت تقوم فيه على خدمة سيدك جاك بيلان وانت جاث على ركبتيك .

اصفى بياسو اليه وقد انقلبت سحنته حتى بدت كسحنة النمر الكاسر ثم قال : حسنا .

ثم تحول الى الزنوج الذين اتوا به وقال : اعدوا حاملين ولوحين من الخشب ومنشارا وخذوا هذا الرجل . وانت يا جاك بيلان النجار ، اشكرنى لأننى أعد الك ميتة نجار .

وضحك وهو يتصور التعـــذيب البشع الذى سيلاقيه سيده القديم . وسرت فى بدنى قشعريرة . ولكن جاك بيلان لم يجزع وتحول الى بياسو فى كبرياء وقال :

– نعم .. يجب ان اشكرك لأننى بعتك بثلاثة عشر قرشا .

وسيق الى مصيره المحتوم .

– ٣٢ –

شهد الأسيران الآخران هذا المشهد وهما يكادان يموتان فرقا ، وتناقض منظرهما المتواضع الهلوع مع ثبات النجار وكبريائه وراحا يرتعدان .

وتأملهما بياسو ، الواحد بعد الآخر ، كما يتامل الثعلب فريسته، ثم راق له ان يطيل عذابهما فتبادل مع ريجو حديثا مستفيضا عن انواع التبغ المختلفة مؤكدا له ان تبغ هافانا لا يصلح الا للتدخين في السيجار وانه لا يعرف اجود من تبغ اسبانيا ، وكان الفقيد بوكمان قد ارسل اليه برميلين منه استولى عليهما من محل مسيو ليباتو ، مالك جزيرة السلحفاة . ثم تحول الى الجنرال كادو فجاة وقال له :

ــ وانت ، ما رايك ؟

ولم يكن الرجل يتوقع مثل هذا السؤال فاجفل واجاب متلعثما :

ــ انني اشاركك رايك يا صاحب الفخامة .

قال بياسو : هذه مجاملة . انني اريد رايك انت لا رايي انا . هل تعرف تبغا اجود من ذلك الذي استولينا عليه من محل مسيو ليباتو ؟

اجاب كادوا ، وكان بياسو قد اطربه انزعاجه : كلا يا مولاي .

قال الزعيم في فروغ صبر : جنرال .. صاحب فخامة .. مولاي .. ومع ذلك فانت ارستقراطي .

صاح الجنرال : اوه ، كلا حقا . انني مواطن صالح وصديق للزنوج .

قال بياسو في غلظة : لا يكفي أن تكون صديقا للزنوج وانما يجب أن تكون صديقا للملونين ايضا .

واظن انني سبق أن قلت ان بياسو من قبيلة ساكاترا .

اجاب كادو في ذلة : هذا ما كنت اقصده . انني صديق لكل انصار السود والمولدين .

طرب بياسو لاذلاله رجلا ابيض وقال : السود والمولدون ؟ .. ما معنى هذا ؟ .. هل اتيت هنا لكي تهيننا بهذه الكلمة البشعة التي اخترعها البيض لتحقيرنا وازدرائنا ؟ .. لا يوجد هنا غير رجال

ملونين وسود . هل تسمع ايها السيد المستعمر ؟

قال كادو : انما هى عادة سيئة ادمنتها منذ الصفر فاصفح عنى . لم اقصد اهانتك يا مولاى .

– كفاك رياء وتملقا .. اقول لك اننى لا احب اساليبك الارستقراطية .

اراد الرجل ان يعتذر مرة اخرى فقال وهو يتلعثم : لو انك عرفتنى ايها المواطن ..

صاح بياسو فى غضب : مواطن ؟ .. من تظننى ؟ .. اننى اكره هذا اللقب الثورى . افتكون من انصار الثورة ؟ .. الا تعرف انك تتحدث مع القائد العام لجيوش الملك .. مواطن ! .. يا للوقاحة !

لم يدر صديق الزنوج المسكين كيف يخاطب هذا الرجل الذى يرفض لغة الارستقراطيين ولغة الثوار ، وحار فى امره وامتلا رعبا . ولم يكن بياسو الا متظاهرا فى غضبه واستمتع بحيرة الرجل وارتباكه ايما استمتاع . وقال المواطن الجنرال اخيرا :

– وا اسفاه ! انك تسىء الظن بى ايها المدافع النبيل عن حقوق نصف الجنس البشرى .

تفرس بياسو فى وجهه وقال : اذن فانت تحب السود والخلاسيين ؟

صاح المواطن كادوا : أوه ، كل الحب .

ابتسم بياسو وقال : آه .. آه .. يسرنى ان ارى فيك صديقا لقضيتنا . وعلى هذا فلابد انك تكره المستعمرين الاشرار الذين قابلوا تمردنا باقسى انواع التعذيب . ولا ريب انك ترى معى ان المتمردين الحقيقيين ليسوا السود وانما هم البيض ما داموا يتمردون على الطبيعة البشرية . ولا ريب انك تكره هؤلاء الوحوش .

اجاب كادوا : اننى امقتهم .

واستطرد بياسو : حسنا . ما رايك فى رجل عرض ان يخمد ثورة العبيد الاخيرة بقطع خمسين راسا من السود على جانبى الشارع الذى يقطن فيه .

امتقع وجه كادو حتى حاكى وجوه الموتى ولم ينطق .

ـ ما رايك فى رجل اقترح ان يحيط مدينة الكاب بشريط من رءوس العبيد ؟

صاح المواطن الجنرال : العفو .. العفو ...

قال بياسو فى برود : وهل ترانى اهددك .. دعنى افرغ .. بشريط من الرءوس حول المدينة .. ما رايك ، تكلم .

اعادت عبارة بياسو « وهل ترانى اهددك » بعض الامل الى قلب كادو ، وحسب ان الزعيم ربما نميت اليه هذه الامور دون ان يعرف مصدرها فاجاب فى شيء من الثبات اتقاء لكل افتراض مخالف :

ـ اظن انها جريمة بشعة .

ابتسم بياسو وقال : حسنا . واى عقاب تقترح ان نوقعه على هذا المجرم ؟

وهنا تردد المسكين ولم يدر ماذا يقول فقال بياسو : هل انت صديق للسود ام لا ؟

واذ راى المواطن كادو ان بياسو يتكلم بلهجة عادية ليس فيها اى عداء نحوه قال فى صوت ضعيف : ان هذا المجرم يستحق الموت .

قال بياسو فى هدوء وهو يلفظ التبغ الذى كان يمضغه : حسنا .

واعاد تظاهره بعدم الاكتراث الأمان والطمـــأنينة الى صديق الزنوج المسكين ، وبذل كادو جهدا جبارا لـكى يبعد الشكوك التى اثقلت عليه وقال :

ـ لم يتمن احد النجاح والنصر لقضيتكم مثلى و ...

قاطعه بياسو قائلا : قل لى اين محلاتك ومخازنك ؟ فان جيشى بحاجة الى المؤونة ، ولا ريب ان مزارعك غنية ومحلك التجارى ناجح ما دمت تتعامل مع كل تجار العالم .

راى كادو ان يقوم بمحاولة اخيرة فقال فى خـــجل : اى بطل الانسانية ، انهم ليسوا تجارا وانما هم فلاسفة ورجال خير واصدقاء للسود .

قال بياسو وهو يهز راسه : ويحك ! .. اراك عدت الى كلماتك الغامضة . اذا لم تكن محلات او مخازن لكى ننهبها ففيم تصلح اذن ؟

اشرق نور من الامل فى قلب كادو وهو يسمع هذا السؤال وقال :

— الديك محاسب فى الجيش ايها المقاتل الباسل ؟

ساله الزعيم : ماذا تعنى ؟

اجاب كادو بقدر ما سمح له خوفه من حماس : ان لمثل هذا الرجل ضرورة كبيرة ، فهو الذى يدبر ميزانية الدولة ، وهو الذى يوفر المال لشراء ما تحتاج اليه من مؤونة ومعدات ، ويوازن بين الاصول والخصوم لكى يعم الرخاء .

قال بياسو وهو ينحنى نحو الساحر : ماذا يعنيه بهذه الكلمات المتناسقة تناسق حبات مسبحتك ؟

هز الساحر كتفيه دليلا على جهله وازدرائه فى حين استطرد المواطن يقول :

— وقد درست علم الاقتصاد على يدى كبار الاقتصاديين امثال تورجو وراينال وميرابو ، وطبقت نظرياتهم عمليا واصبحت خبيرا فى الامور التى تهم الحكومات والدول .

ابتسم ريجو وقال متهكما : ارى ان الاقتصادى لا يقتصد فى كلماته .

وصاح بياسو : قل لى ايها الثرثار .. هل تظن ان لدى دولا وحكومات لكى احكمها .

— ليس الآن ايها الرجل العظيم ، ولكن سياتى ذلك دون شك . ويمكنك ان تستفيد من خبرتى لكى تدير شئون جيشك .

قال بياسو : اننى لا ادير جيشى ايها المزارع وانما اقوده .

قال المواطن : حسن . سادبره انا اذن . فان لى معرفة كبيرة لمضاعفة عدد البهائم .

زمجر بياسو وقال : اتظن اننا نربى المواشى ؟ انما نحن ناكلها . وعندما نفتقر اليها ساجتاز الحدود واستولى على الابقار والخراف الاسبانية التى ترعى فى السهول الفسيحة . ثم انه سيكون من دواعى سرورى ان انتقم من هؤلاء الاسبانيين ، فهم الذين غدروا بأوجيه وسلموه للبيض . وهانت ترى اننى لست منزعجا من ناحية نقص المؤن ، واننى لست بحاجة الى علومك الضرورية .

اثار هذا التصريح ارتباك الاقتصادى المسكين ولكنه بذل مع ذلك محاولة اخيرة لكى ينجو بجلده فقال :

ـ لم تقتصر دراساتى على تربية المواشى وانا على دراية تامة باعمال اخرى يمكن ان تفيدك كثيرا . سابين لك كيف تستغل مناجم الفحم .

قال بياسو : وفيم يهمنى ذلك . عندما احتاج الى الفحم ساحرق ثلاثة فراسخ من الغابات .

استطرد الاسير : سارشدك الى فائدة كل نوع من الخشب .

صاح بياسو وقد فرغ صبره : انا لست بحاجة الى ضباط ولا يوجد فى جيشى غير وظيفة شاغرة هى وظيفة خادم . اسمع ايها الفيلسوف . اذا كانت هذه الوظيفة تناسبك فسوف تقوم بخدمتى وانت جاث على ركبتيك . ستأتينى بالبايب واليخنى وحساء السلحفاة ، وستقف خلفى وتمروح بالمروحة كما يفعل هذان الغلامان اللذان تراهما .. ايه .. اجب ، هل تريد هذه الوظيفة ؟

ولم يكن المواطن يفكر فى شىء غير انقاذ حياته بأى ثمن فانحنى انحناءة كبيرة وقد ارتسمت على وجهه دلائل الفرح والامتنان . وساله بياسو :

ـ انت تقبل اذن ؟

ـ وهل يمكن ان تشك لحظة واحدة ايها السيد الكريم فى اننى اتردد امام خطوة كهذه لكى اخدم شخصك .

اتسعت ابتسامة بياسو وازدادت تألقا ازاء هذا الرد وعقد

ذراعيه ونهض فى انتصار ودفع بقدمه راس الرجل الراكع امامه وصاح فى صوت مرتفع :

ـ طاب لى ان ارى الى اى مدى يبلغ جبن البيض بعد ان رايت مدى قسوتهم وفظاعتهم . ايها المواطن كادو . اننى ادين لك انت بهذا المثل المزدوج . اننى اعرفك . كيف امكن ان تبلغ بك الحماقة الى حد ان لا تلحظ ذلك . انك انت الذى اشرفت على تعـذيب السـود فى شـهور يونيه ويوليه واغسطس ، وانت الذى نصبت خمسين راسا من السود على جانب الشارع الذى تقيم فيه ، وانت الذى اردت ان تذبح عبيدك الخمسمائة الذين ابقيتهم اسرى فى مزرعتك وأن تحيط مدينة الكاب بسياج من روسهم ، ولو انك استطعت ان تجعل من راسى انا شعارا لفعلت . وانت الآن تعتبر نفسك سعيدا لأننى رضيت ان تكون خادما لى . كلا ، كلا . اننى احرص على شرفك اكثر منك ، وساعفيك من هذه الاهانة . اعد نفسك للموت .

واتى باشارة فدفعه الزنوج الى جوارى . ولم يستطع المسكين أن ينطق بكلمة واحدة ووقع عند قدمى وقد اغمى عليه .

ـ ٣٤ ـ

قال الزعيم وهو يلتفت الى الاسير الاخير واعنى به المستعمر الذى يشتبه البيض فى انه من الخـلاسيين والذى ما كان ليتردد فى مبارزة من يوجه اليه هذه الاهانة :

ـ جاء دورك الآن .

وارتفع صخب شديد من جموع الجيش غطى على رد المستعمر ، فقد صاح الجميع يقـولون وهم يجزون على أسنانهم ويلوحون بقبضاتهم فى وجه الاسير : الموت ... الموت .

قال احد الخلاسيين معبرا عن راى الجميع : انه رجل ابيض ايها الجنرال ، ويجب ان يموت .

استطاع المزارع ان يتكلم اخيرا رغم ما يعانيه من رعب وخوف فقال : كلا ، كلا يا سيدى الجنرال . انا لست ابيض . هذه فرية شنيعة . انا خلاسى مولد مثلكم ، من ام زنجية كامهاتكم وبناتكم .

صاح السود محنقين . انه يكذب ، فهو ابيض . وطالما ابدى كراهيته للسود والخلاسيين .

عاد الأسير يقول : ابدا .. ابدا .. انما هم البيض الذين اكرههم . انا اخ لكم وطالما ناديت معكم بان الزنوج هم الاسياد وان البيض هم العبيد .

صاح الجميع ثانية : ابدا .. ابدا .. الموت للرجل الابيض .. الموت للرجل الابيض .

وعاد المسكين يقول فى بؤس : انا خلاسى .. انا منكم .

سأله بياسو فى برود : وما دليلك ؟

اجابه الآخر فى قلق : دليلى ؟ .. هو ان البيض احتقرونى دائما .

قال بياسو : هذا جائز . ولكنك وقح .

تقدم شاب خلاسى وخاطب المستعمر قائلا : تقول ان البيض احتقروك وهذا صحيح ، ولكنك كنت تتظاهر نظير ذلك بانك تحتقر الخلاسيين الذين يضمونك الى صفوفهم ، وقد قيل انك بارزت رجلا ابيض لانه قال لك انك تنتمى الى عشيرتنا .

علا الصخب وارتفعت صيحات الجميع يطالبون بالموت للمستعمر الذى رمانى بنظرة جانبية تنطق باليأس والرجاء فى نفس الوقت وبكى وهو يقول :

ــ هذه فرية . وانى لسعيد وفخور بانتمائى الى السود فانا خلاسى .

قال ريجو فى هدوء : الواقع لو انك خلاسى كما تقول ما استخدمت هذه الكلمة . لعلكم تعرفون ايها السادة ان الخلاسيين يرفضون

هذه الكلمة فى غضب لانها صفة اخترعها البيض لتحقيرهم .

قال المسكين : ويح نفسى ! وهل اعرف ما اقول يا سيدى القائد العام . الدليل على اننى خلاسى هى هذه الدائرة السوداء التى تستطيع ان تراها حول اظافرى .

ولكن بياسو دفع يده بعيدا عنه قائلا : ليست لى خبرة الكاهن الذى يستطيع ان يعرف من انت بفحص يدك . ولكن اصغ لى . ان جنودى يتهمونك ، البعض بانك ابيض والبعض بانك اخ كاذب ، واذا صح ذلك فيجب ان تموت . ولكنك تقول انك تنتمى لعشيرتنا وانك لم تتنكر لها ابدا ، وليس امامك غير وسيلة واحدة لكى تبرهن بها على ما تقول وتنقذ نفسك .

ساله المستعمر فى لهفة : وما هى يا سيدى الجنرال ... ما هى ؟ .. اننى على استعداد .

قال بياسو ببرود : هى أن تأخذ هذا الخنجر وتطعن به هذين الاسيرين الابيضين .

واشار الينا بيده وهو يقول ذلك . وارتد المزارع مرتاعا امام الخنجر الذى بسطه له بياسو وهو يبتسم ابتسامة شيطانية .

وقال الزعيم : حسنا ؟ .. هل تتردد ؟ ومع ذلك فهذه هى الوسيلة الوحيدة التى تثبت لى ولجيشى انك لست ابيض وانك منا ... هيا .. هيا .. استقر على امرك ولا تضيع وقتى .

شردت عينا الاسير وتقدم خطوة نحو الخنجر ثم تخاذلت يداه وتوقف مكانه وهو يحول بصره عنه . وسرت القشعريرة فى بدنه .

وصاح بياسو فى فروغ صبر : هيا . اننى على عجل من امرى . لك الخيار . اما ان تقتلهما بيدك واما ان تموت معهما .

وقف المستعمر مكانه وقد سمرته فظاعة الموقف فقال بياسو وهو يتحول الى السود :

ــ حسنا جدا .. انه لا يريد ان يكون جلادا ويفضل التعذيب . ارى انه أبيض كما تقولون .

تقدم السود للامساك به . وكانت لهذه الحركة التى اتوا بها تأثيرا عليه فى الاختيار بين الحياة والموت . فان الافراط فى الجبن له شجاعته ايضا فقد اندفع نحو الخنجر الذى بسطه بياسو له دون ان يمنح نفسه وقتا للتفكير فيما سيقدم عليه وهجم على المواطن الذى يقف بجوارى كما يهجم النمر على فريسته .

وبدا عندئذ عراك رهيب فان صديق الزنوج الذى عذبه بياسو باستجوابه بالطريقة التى عرفناها كان قد غرق فى يأس كئيب وراح يتابع ما يحدث بين الزعيم والمزارع فى غباء وهو لا يفكر الا فى التعذيب الذى ينتظره ودون ان يفهم منه شيئا . ولكنه عندما رأى المستعمر يهجم عليه والخنجر يلمع فى يده فوق راسه احس بالخطر واعتدل فى وقفته وامسك بيد القاتل وهو يصيح فى صوت مؤثر :

ـ الرحمة .. الرحمة .. ماذا تريد بى ؟ .. ماذا فعلت لك ؟

اجاب الخلاسى وهو يحاول تخليص يده منه وينظر اليه بعينين تنطقان بالذعر :

يجب ان تموت يا سيدى ، فدعنى اقتلك . لن اؤلمك .

قال الاقتصادى : اموت بيدك انت ؟ ولماذا ؟ ابق على . لعلك لست حاقدا على لاننى قلت انك خلاسى منذ ايام . ولكن اترك لى الحيـــاة . اننى اعترف واقر الآن انك ابيض .. انت ابيض . وساصرخ بذلك فى كل مكان . ولكن ارحمنى .

صاح الخلاسى محنقا وهو يخشى ان يكون السود قد سمعوا هذا التصريح : اسكت .. اسكت ...

ولكن الآخر صاح دون ان يصغى اليه قائلا انه ابيض وانه من ارومة طيبة . وبذل الخلاسى جهدا اخيرا لـكى يسكته ، وتخلص من اليد المسكة به واغمد الخنجر فى صدر صاحبها . وأحس الاقتصادى المسكين بنصل الخنجر يغوص فى جسده وعض الذراع الممسكة به فى غل وهو يصيح : ايها الوحش .. ايها الوغد .. انك تقتلنى .

والقى نظرة الى بياسو وهو يقول : انقذنى يا نصير الانسانية .
ولكن القاتل اغمد الخنجر بقوة . وانبثق الدم حول يده وعلى وجهه . وتخاذلت ساقا المسكين وتهاوت يداه وانطفات الجذوة فى عينيه واطلق صرخة صماء من بين شفتيه ثم سقط ميتا .

— ٣٥ —

هذا المشهد الذى كنت اتوقع ان اقوم بدورى فيه وشيكا جمدنى من الرعب . اما نصير الانسانية ، فقد شهد عراك الرجلين بعين جامدة . وعندما انتهى الامر تحول الى الفلامين المذعورين وقال :
— الى ببعض التبغ .
وراح يمضغ التبغ فى هدوء .

وكان الساحر وريجو واقفين جامدين ، وبدا الروع فى وجوه السود انفسهم ازاء هذا المشهد البشع الذى قدمه لهم زعيمهم .

ومع ذلك فقد بقى رجل ابيض اجير لابد من قتله ، واعنى به انا نفسى ، فقد حان دورى . والقيت نظرة الى هذا القاتل الذى سيغدو جلادى ، ولم يسعنى الا ان ارثى لحاله . فقد ازرقت شفتاه وراحت اسنانه تصطك واعضاؤه ترتجف . ولكن لا يفتأ يرفع يده الى وجهه بحركة آلية لكى يمسح آثار جريمته . واخذ ينظر فى غباء الى الجثة التى عند قدميه وهو لا يستطيع ان يحول عنهـــا عينيه الذائغتين .

وانتظرت اللحظة التى سيفرغ فيها من مهمته بالقضاء على . وكنت فى موقف غريب مع ذلك الرجل ، فقد اوشك ان يقتلنى قبل ذلك لكى يثبت انه ابيض ولكنه سيقتلنى الآن لكى يبرهن على انه خلاسى .

وقال بياسو يخاطبه : حسن . اننى مسرور منك يا صديقى .

والقى نظرة الى ثم اردف : واننى اعفيك من قتل الرجل الآخر ، فامض . اننى انادى بك اخا وجلادا لجيشنا .

وما ان فرغ الزعيم من كلماته هـذه حتى خرج زنجى من بين الصفوف وانحنى ثلاث مرات امام بياسو ثم صاح :

ــ وانا يا سيدى الجنرال ؟

ساله بياسو : ماذا تعنى ؟

قال الزنجى : الن تفعل شيئا من اجلى يا سيدى الجنرال ؟ انك اعطيت الآن وظيفة لهذا الكلب الابيض الذى يقتل لكى نعترف بنسبته الينا . الا تعطينى وظيفة لى انا الآخر بحكم كونى اسود ؟

بدا الارتباك على بياسو لانه لم يكن يتوقع مثل هذا الطلب ، وانحنى نحو ريجو ، وقال له هذا الاخير :

ــ لا يمكن ارضاؤه ، فحاول التخلص منه .

وقال بياسو يخاطب الاسود : اتريد ترقية ؟ .. ليس احب الى من ذلك . اية رتبة تريد ؟

ــ اريد ان اكون ضابطا !

قال القائد العام : آه . تريد ان تكون ضابطا ؟ .. وما هى مؤهلاتك لذلك ؟

قال الاسود فى حماس : انا الذى اشعلت النار فى بيت لاجوست فى اوائل اغسطس ، وانا الذى ذبحت مسيو كليمان المزارع ونصبت راس مدير اعماله على طرف حربة وذبحت عشر نساء بيضاوات وسبعة اطفال ، وعلقت راس واحد منهم شعارا لجنود بوكمان البواسل . ثم حرقت بعد ذلك اربع عائلات فى احدى غرف حصن جاليفيه . مات ابى شهيد التعذيب فى مدينة الكاب ومات اخى مشنوقا فى روكرو واوشكت ان اموت انا نفسى رميا بالرصاص ، وحرقت ثلاث مزارع للبن وست مزارع لقصب السكر وقتلت مولاى مسيو نويه وزوجته ...

قال ريجو : وفر علينا مواهبك هذه .

وكانت وداعته تخفى قسوة حقيقية ولكنه كان قاسيا فى احتشام ولم يكن يحتمل الافراط فى الاجرام .

وعاد الزنجي يقول في زهو : استطيع ان اذكر الكثير غير ذلك ، ولكن لا ريب انك تجد ان هذا يكفي لكي استحق رتبة الضابط ولكي احمل كتفيه على سترتي كزملائي هؤلاء .

واشار الى مساعدي بياسو ، وبدا على القائد العام انه يفكر ثم خاطب الزنجي في لهجة خطيرة :

ـ يسرني ان امنحك هذه الترقية فانا راض عن خدماتك . ولكن لابد من شيء آخر ، فهل تعرف اللاتينية ؟

حملق الشقي فيه وقال : ماذا .. ايها الجنرال ؟

عاد بياسو يقول : نعم .. هل تعرف اللاتينية ؟

وازدادت دهشة الزنجي وعاد يقول : اللاتينية ؟

اجاب بياسو : نعم ، نعم . اللاتينية .

ونشر رايه عليها بضع كلمات باللاتينية معناها « خروج اسرائيل من مصر » . ثم ساله : اشرح لي معنى هذه الكلمات .

وقف الجندي جامدا لفرط ذهوله ودهشته وراح ينقل عينيه المذعورتين من الزعيم الى العلم ومن العلم الى الزعيم ، وقال بياسو في فروغ صبر :

ـ هيا تكلم . ما معنى هذه الكلمات ؟

حك الزنجي راسه وفتح فمه واطبقه اكثر من مرة واخيرا قال في ارتباك : لا ادري يا سيدي الجنرال ... فانني لا اعرف اللاتينية .

ارتسم الغضب والسخط على وجه بياسو وقال : كيف هذا ايها الفر الاحمق .. اتريد ان تكون ضابطا وانت لا تعرف اللاتينية ؟

تمتم الزنجي مرتبكا : ولكن يا سيدي القائد ...

قال بياسو في حدة ظاهرة : اسكت . لا ادري لماذا لا ارميك بالرصاص في التو لوقاحتك هذه . ارايت يا ريجو الى هذا الرجل الوقح الذي لا يعرف اللاتينية ويريد مع ذلك ان يكون ضابطا ! ايمكن لمن لا يعرف اللاتينية ان يكون ضابطا يا سيدي الكاهن ؟

اجاب الكاهن : كلا . ان هذا لا يمكن ان يكون .

ـ ان هذا الاخ الذى عينته جلادا للجيش والذى تغبطه انت يعرف اللاتينية .

وتحول الى الجلاد الجديد وساله وهو يغمزه بعينه خفية : اليس صحيحا انك تعرف اللاتينية ايها الصديق ؟

وادرك الخلاسى ما ينتظره منه القائد فاجاب وهو لا يزال يرتعد فرقا : طبعا . واتقنها كل الاتقان .

تحول بياسو عندئذ الى الزنجى وصاح به محتدا : عد وقف فى الصف الذى كنت فيه ولا تطمع فى ترقية بعد الآن والا شنقتك .

وعاد الزنجى الى مكانه مشدوها ومروعا فى نفس الوقت . واطرق براسه خجلا من رفاقه الذين راحوا يمطرونه بسخريتهم لتطاوله ويشيدون بسعة علم القائد العام .

كان فى هذا المشهد جانبا مضحكا ، ومع ذلك فقد دلنى على ذكاء بياسو الخارق ، فان الوسيلة المضحكة التى استخدمها بكل هذا النجاح لاحباط الاطماع المتشددة فى جيش من المتمردين جعلتنى اتأكد من غباء الزنوج ودهاء زعيمهم .

ـ ٣٦ ـ

وكانت ساعة الغداء قد اقبلت فجىء لبياسو بقشرة سلحفاة كبيرة فيها نوع من اليخنى يتصاعد منه البخار وقد استبدل لحم الضان بلحم السلحفاة نفسها وكرنبة مسلوقة . وبطبقين كبيرين بأحدهما عنب وبالآخر تين ، ورغيف من خبز الذرة وقربة من النبيذ . واخرج من جيبه بضعة فصوص من الثوم دعك بها الرغيف ثم راح يأكل دون ان يرفع احد جثة القتيل من امامه ، ودعا ريجو ليشاركه الطعام .

اما الساحر فلم يشترك معهما ، وادركت عندئذ انه ، كغيره من

السحرة ، لا يتناول الطعام ابدا امام احد حتى يعتقد الناس انه من عنصر آخر غير عنصر سائر البشر العاديين وانه يعيش دون طعام .

وفيما كان بياسو ياكل امر احد مساعديه أن يبدأ الاستعراض فراحت جموع السود تمر امام المغارة فى نظام . وكان زنوج المورن روج البادئين ، وكانوا نحو أربعة آلاف ، ينقسمون الى كتيبات صغيرة صفوفها متراصة ويقودهم زعماء يرتدون سراويل واحزمة حمراء . وكانوا جميعا ضخام الجسم اقوياء ، يحملون البنادق والسيوف ، وذلك لعدم استطاعتهم الحصول على اسلحة أخرى ، ولم يكن لهم علم يميزهم ، وانما كانوا يمشون فى صمت ووجوم .

واذ راى بياسو هذه الجموع تمر امامه انثنى الى ريجو وقال له بالفرنسية :

— متى تخلصنى مدفعية بلانشلاند وروفرى من أشقياء مورن روج هؤلاء ؟ اننى امقتهم ، فهم جميعا كونجوليون تقريبا ثم انهم لا يحسنون القتل الا فى المعارك معتقـدين فى ذلك بزعيمهم الاحمق ، مثلهم الاعلى ، ذلك البوج جارجال . انه شاب مجنون ، كان يريد ان يكون كريما وشريفا . الا تعرفه يا ريجو ؟ ارجو الا تعرفه ابدا اذن فقد اسره البيض وسوف يخلصوننى منه كما خلصونى من بوكمان .

أجاب ريجو : بخصوص بوكمان ، هؤلاء هم سـود جمايكا الذين يمرون الآن ، وارى فى صفوفهم ذلك الزنجى الذى اوفده اليك جان فرانسوا لكى ينبئك بموت بوكمان . الا تعرف ان هذا الرجل يمكن ان يكذب تنبؤات الساحر بخصوص نهاية هذا الزعيم اذا قال انهم القوا القبض عليه فى المقدمة قبل الاشتباك بنصف ساعة وانه اسر الى بهذا النبأ قبل ان استدعيه اليك .

قال بياسو : يا للشيطان ! انت على حق يا عزيزى . يجب ان نطبق فم هذا الرجل . مهلا .

ثم رفع صوته وصاح : ماكايا !

خرج زعيم السود الماكايا وقـدم طبنجته دليـلا على الاحترام

فخاطبه بياسو قائلا : اخرج من صفوفك ذلك الجندى الذى اراه هناك والذى لا ينبغى ان يكون بينهم .

وكان الجندى الذى يشير اليه هو رسول جان فرانسوا . واحضره ماكايا الى القائد الأعلى . وتظاهر هذا الاخير بالغضب الشديد وقال يسال الزنجى المشدوه : من انت ؟

ــ انا رجل اسود ايها القائد .

ــ ويحك . اننى ارى انك اسود . ولكن ما اسمك ؟

ــ اسمى الحربى فاتلان واسمى الحقيقى ساباس .

قال بياسو : كيف تجرؤ على حضور الاستعراض بين البنادق اللامعة والسيوف البراقة بسيفك الذى لا غمد له وسروالك الممزق وقدميك الملوثتين بالوحل ؟

اجاب الأسود : ليس الذنب ذنبى ايها الجنرال ، فقد كلفنى الأميرال العظيم جان فرانسوا ان احمل اليك نبأ موت الزعيم بوكمان . واذا كانت ثيابى قد تمزقت ، واذا كانت قدماى قد تلوثتا فذلك لأننى عدوت حتى كادت انفاسى تضيع لكى آتيك بهذا النبأ فى اسرع وقت . ولكنهم احتجزونى فى المعسكر و ...

قاطعه بياسو وقد قطب حاجبيه : اننى لا اقصد هذا ايها الاحمق ، وانما اعنى جراتك على حضور الاحتفال بهذه الصورة ، فاتل الصلاة على روحك ثم اطلق النار على نفسك .

هنا ايضا تاكدت من نفوذ بياسو الاخلاقى على المتمردين فان المسكين وقد تلقى الامر بأن يقتل نفسه لم ينطق بكلمة ، وانما اطرق براسه الى الارض وعقد ذراعيه على صدره ثم حيا قاضيه الذى لا يرحم ثلاث مرات . وبعد أن احنى راسه للساحر الذى باركه خرج من المغارة . وبعد بضع دقائق دوى طلق نارى عرف منه بياسو ان الزنجى أطاعه وانتحر .

وهكذا تخلص الزعيم من كل ما يدعو الى قلقه وخوفه ، وتحول عندئذ الى ريجو وفى عينيه وميض من السرور وعلى شفتيه ابتسامة عريضة كانه يريد ان يقول : ارايت ؟ .. ما رايك الآن ؟

واستمر الاستعراض . وهذا الجيش الذى قدم لى صورة غريبة من الفوضى قبل ذلك بساعات لم يكن اقل غرابة وهو يحمل السلاح ، فكنت ارى تارة زنوجا عراة مسلحين بالهراوات والفئوس والنبابيت يمشون على صوت قرون الكباش كالمتوحشين ، وتارة اخرى ارى فرقا من الخلاسيين المسلحين على الطريقة الاسبانية او الانجليزية يمشون بنظام حاملين اسلحتهم ويوفقون خطواتهم على صوت الطبول ثم جماعات من الزنجيات والصبية مسلحين بالمعاول والاسياخ ، وشيوخ تقدم بهم السن واحدودبت ظهورهم لا يقوون على حمل بنادقهم ، ثم سحرة بوجوه مكشرة متقلصة يرفعون عقيرتهم بأغان غير واضحة تصاحبهم نغمات الجيتار والطنطن والمزمار . وكانت تقطع هذه الجموع الغريبة من وقت لآخر عصابات من البدو السود وهم يرفعون رءوسهم فى كبرياء ، يحملون فى ايديهم بنادق لامعة ويجرون خلفهم عربات محملة بالمؤن المسروقة او بمدافع استولوا عليها من البيض ويستخدمونها كغنيمة اكثر منها كسلاح ويغنون اغان حربية بصوت مرتفع . وفوق كل الرءوس ترفرف أعلام من كل لون ومن كل الشعارات ، بيضاء وحمراء وثلاثية الالوان تحمل عبارات مختلفة منها : الموت للكهنة والارستقراطيين .. حرية ومساواة .. يعيش الملك .. لتسقط الحكومة وتحيا اسبانيا .. الموت للطغاة .. الى ذلك .. فوضى غريبة تدل على ان كل جنود المتمردين ليسوا الا جماعة من المتوسطين لا غرض لهم ولا هدف وان الفوضى لا تكمن فى صفوف الرجال فقط وانما فى آرائهم وافكارهم .

وكانت كل جماعة منهم ، اذا ما مرت بباب المغارة تخفض علمها ، وكان بياسو يرد على كل تحية ويوجه لكل جماعة اما اطراء واما تعنيفا حسب الظروف ، وكانت كل كلمة من بين شفتيه ، سواء كانت مناسبة او متملقة تقابل باحترام عميق وخوف شديد .

وانتهت جموع البرابرة والهمجيين اخيرا ، واعترف ان منظرهم الذى اطربنى فى البداية كان ثقيلا على نفسى فى النهاية .

هذا وخيوط النهار تولى مدبرة ، وما كادت الصفوف الاخيرة تمر حتى كانت الشمس قد اصبحت قرصا نحاسيا احمر ، تلقى بآخر اشعتها على صخور الجبال .

— ٣٨ —

بدا بياسو وقد غرق فى الاحلام . وعندما انتهى العرض ، وبعد ان اصدر اوامره الاخيرة ، وعادت الجموع الى اكواخها وجه الى الحديث فقال :

ـ ايها الشاب . لا ريب انك استطعت ان ترى بنفسك مدى عبقريتى ومقدرتى . وقد حانت الساعة الآن لكى تمضى وتطلع ليجورى بكل ذلك .

قلت فى هدوء : اذا كنت قد بقيت على قيد الحياة حتى الآن فلم يكن ذلك بيدى .

قال : صدقت .

وامسك لحظة كما لو ليرى التأثير الذى ستحدثه بى كلماته التى يوشك ان ينطق بها ثم اردف : ولكن بيدك ان تبقى على قيد الحياة .

صحت مشدوها : وكيف هذا ؟ .. ماذا تعنى ؟

استطرد بياسو يقول : نعم . ان حياتك رهن بك انت وفى مقدورك ان تنقذها اذا اردت .

كان هذا اول عمل من اعمال الرافة ولعله الأخير الذى يصدر من بياسو ، وقد بدا لى كما لو كان عملا خارقا . وذهل الساحر مثلى فوثب من مقعده حيث كان قد بقى مكانه كل هذه المدة ، مستغرقا فى التأمل والتفكير كما يفعل دراويش الهنود . ووقف امام القائد ورفع صوته قائلا فى غضب :

ـ ماذا يقول القائد العام الكريم ؟ .. هل نسى ما وعدنى به ؟ .. ما من احد يستطيع التصرف فى حياة هذا الاسير : فهى ملكى انا .

نهض بياسو واقفا دون ان يبدو عليه اى تأثر وكلمه لحظة فى صوت خافت واراه العلم الاسود الذى سبق ان لحظتـه ، وبعد بضع كلمات متبادلة هز الساحر راسه علامة على الموافقة ثم عاد كل منهما الى مكانه ، وخاطبنى القائد قائلا وهو يخرج من جيبه رسالة جان فرانسوا الثانية التى كان قد دسها فيه :

ـ اصغ الى . ان موقفنا ليس على ما يرام . وقد لقى بوكمان حتفه فى معـــــركة ، واباد البيض الفى زنجى من المتمردين . والمستعمرون مستمرون فى تعزيز ثكناتهم واقامة المراكز العسكرية فى السهول . وقد اضعنا بغلطتنا فرصة الاستيلاء على مدينة الكاب . ولن تحين هذه الفرصة ثانية قريبا ، ومن ناحية الشرق يخترق النهر الطريق العمومى ، ولكى يمنعنا البيض من عبوره اقاموا مدفعية ضخمة فوق جسور عائمة ، وفى ناحية الجنوب طريق عام يخترق هذا البلد الجبلى يدعى « اعالى الكاب » وقد حصنوه بمدفعية شديدة هو الآخر ، وحصنوا الموقـع من ناحية الارض بسياج من اعـواد قصب السكر ، اقامه الاهالى وزودوه بمتاريس شائكة . ومدينة الكاب ، بهذه الطريقة ، فى حمى من جيـوشنا . والـكمين الذى نصبناه فى عنق دوميت مولاتر فقد تأثيره . اضف الى كل هــذه الهزائم التى منينا بها الحمى التى تفشت فى معسكر جان فرانسوا . ونتيجة لهــذا كله فان اميرال فرنسا العظيم يرى ، ونحن معه ، ان من الاوفق ان نفاوض المحافظ بلانشلاند والجمعية الاستعمارية ، وها هى الرسالة التى نوجههــا الى الجمعية فى هذا الصـدد ، فاسمع :

« السادة النواب ،

« لقد حلت المصائب والكوارث بهذه المستعمرة الفنية المهمة والمت بنا ولم يعد لدينا ما نبرر به اعمالنا . ولكن قد يأتى يوم تعترفون

فيه باحقية موقفنا . يجب ان يشملنا العفو العام الذى اعلنه الملك لويس السادس عشر للجميع دون استثناء .

« والا ، وبما ان ملك اسبانيا ملك كريم ويعاملنا معاملة طيبة ويحسن وفادتنا فسوف نستمر فى خدمته بكل حمية واخلاص .

« ونحن نرى ان الملك منحكم ومنح الجمعية بقانون ٢٨ سبتمبر حق الحكم على موقف الاشخاص غير الاحرار والحالة السياسية للرجال الملونين . وسندافع عن قرارات الجمعية الوطنية وقراراتكم المستوفاة بكافة الاجراءات المطلوبة حتى آخر قطرة من دمائنا . ومن المهم ان تعلنوا بقرار مصدق عليه من الجنرال بأن فى نيتكم الاهتمام بمصير العبيد ، وسوف يرضى العبيد بذلك اذا ما عرفوا انكم مهتمون بهم وذلك عن طريق زعمائهم بأن ترسلوا اليهم هـذا القرار وبذلك تستتب الامور فى وقت قصير .

« ولكن لا تظنوا ايها السادة النواب اننا نرضى بالتسليح نزولا على ارادة الجمعيات الثورية ، فنحن رعايا ثلاثة ملوك ، ملك الكونجو الذى ولد سيدا لكل العبيد وملك فرنسا الذى ينوب عن آبائنا وملك اسبانيا الذى ينوب عن امهاتنا .. هؤلاء الملوك الثلاثة هم سلالة حكماء المجوس الثلاثة الذى هداهم نجم فى السماء ، مشيرا لميلاد المسيح . واذا نحن خدمنا الجمعيات فقد نضطر الى محاربة اخواننا، رعايا هؤلاء الملوك الثلاثة الذين اقمنا لهم يمين الولاء .

« ثم اننا لا ندرى ما المراد بارادة الأمة ما دمنا ، منذ ان خلق العالم لا نعرف شيئا غير ارادة الملك . ان امير فرنسا يحبنا وامير اسبانيا لا يقطع عنا مساعداته وامداداته . ونحن نساعدهما وهما يمدان الينا يد المساعدة فتلك هى قضية الانسانية . واذا حدث وافتقدنا هؤلاء الملوك فسوف ننصب علينا ملكا على الفور .

« تلك هى نوايانا التى نرضى بعقد السلام مقابلها .

التوقيعات : جان فرانسوا ، بياسو ، وسبريز ، مانزو ، توسان واوبير ومفوضون عن جميع الزنوج »

واردف بياسو يقول بعـد ان فرغ من قراءة هـذه الوثيقة التى انطبعت كلماتها فى ذهنى كلمة كلمة :

– هانت ترى اننا قوم محبون للسلام . واليك ما اطلبه منك . اننا لم نتعلم ، لا انا ولا جان فرانسوا فى مدارس البيض حيث يدرسون اللغـة الفصحى . اننـا نحسن القتـال ولكننا لا نحسن الكتابة . ومع ذلك فنحن لا نريد أن تضم رسالتنا التى نرسلها الى الجمعية اخطاء نحوية تثير السخرية . ويبدو انك درست هذا العلم الذى نفتقر اليه فصحح الاخطاء التى يمكن آن تكون فيها والتى يمكن ان تثير سخرية البيض واننى امنحك حريتك مقابل ذلك .

كانت تلك الرسالة تحتوى على اخطاء نحوية وسياسية ابت على كبريائى ان اقوم بتصحيحها ، ولم اتردد لحظة واحدة ، ومهما يكن فما فائدة الحياة ، ورفضت عرضه .

وبدا مشدوها وصاح : كيف هذا ؟ .. اتؤثر الموت على ان تصحح بضع كلمات ؟

اجبت : نعم .

– اسمعنى جيدا ايها الشاب المجنون . اننى اقل منك عنادا وامهلك حتى الغد لكى تستقر نيتك على اطاعتى .. غدا ، عند مغيب الشمس سيعودون بك الى ، فاحرص على ارضائى . وداعا . ان الليل غير ناصح . فكر جيدا فان الموت عندنا ليس مجرد موت .

وصاحب كلماته الاخيرة بضحكة مقيتة ادركت منها المعنى الذى ينطوى عليها والتعذيب الذى اعتاد بياسو أن ينزله بضحاياه .

واستطرد بياسو يقول : كاندى ، خذ السجين ودعه فى حراسة رجال المورن روج • أريد أن يعيش يوما آخر ، وقد لا يصبر جنودى حتى ينتهى هذا اليوم .

وكان كاندى رئيس حراسة فاوثق يدى خلف ظهـرى وامسك الجنود بطرف الحبل وخرجنا من المغارة .

حين سلمنى حراس بياسو الى زنوج مورن روج خيل لى ان اشباحا تسلمنى الى اشباح ، وتركتهم يربطوننى من وسطى الى جذع شجرة دون ان ابدى اية مقاومة . وجاءونى ببعض البطاطا المسلوقة فاكلتها بتلك الغريزة الالهية التى يمنحها الله الكريم للانسان وسط مشاغل الذهن ، وكان الليل قد اقبل فانسحب حراسى الى اكواخهم وبقى منهم ستة فقط ، بين جلوس ونيام ، امام نار كبيرة اشعلوها اتقاء لبرد الليل ، ولم تمض بضع لحظات حتى غرقوا جميعا فى نوم عميق .

ولم يساهم الارهاق الجسمانى الذى عانيته فى تبديد الاحلام الغامضة التى شردت فيها افكارى ، فقد تذكرت الايام الجميلة التى قضيتها بجوار مارى قبل ذلك باسابيع قليلة دون ان استشف فى المستقبل اى احتمال غير احتمال سعادة ابدية . وقارنت بين تلك الايام واليوم الذى انقضى حيث وقعت امامى اشياء غريبة كما لو كنت اشك فى وقوعها ، ذلك اليوم الذى واجهت فيه الموت ثلاث مرات ، وفكرت فى مستقبلى الذى لم يعد يزيد عن يوم واحد ، وهو يوم الغد والذى لم يكن يدخر لى غير موت مؤكد . وخيل لى اننى اناضل كابوسا مريعا ، وتساءلت اذا كان كل ما حدث قد حدث حقا واذا كنت موجودا حقا فى معسكر بياسو الدامى ، واذا كانت مارى قد ضاعت منى الى الأبد ، واذا كان هذا السجين الذى يقوم على حراسته ستة من البرابرة والذى ينتظر الموت الزؤام هو انا حقا . ورغم ما بذلت من جهد للهرب من هذه الفكرة الملحة الممزقة فان قلبى كان يعود الى مارى ، وكنت اتساءل فى قلق عن مصيرها واحاول التخلص من قيودى لكى اسرع الى نجدتها معشما نفسى ان الحلم الفظيع لا يلبث ان ينقشع وان الله لا يرضى للشرور والرزايا . ان تدخل حياة الملاك الذى منحنى اياه زوجة ، وهذا الترابط المؤلم لافكارى كان يعيد عندئذ الى ذهنى بييرو فيعمينى الغضب ويخيل الى ان شرايين جبينى

ستتمزق . وكرهت نفسى ولعنتها واحتقرتها لاننى ربطت لحظة صداقتى لبيرو بحب مارى . ودون أن احاول معرفة السبب الذى القى به فى مياه النهر الكبير رحت ابكى لاننى لم اقتله ، فهو قد مات ، وانا اوشك على الموت ، والشىء الوحيد الذى رحت اتحسر عليه هو انتقامى .

عصفت بى كل هذه الانفعالات وانا بين اليقظة والمنام ، وسط الارهاق والضنى اللذين غرقت فيهما . ولا أدرى كم من الوقت بقيت على هذه الحال ، ولكننى انتبهت فجأة على صوت رجل يغنى من بعيد اغنية واضحة كان يقول فيها « انما انا المهرب » ففتحت عينى وانا ارتجف . كان كل شىء حولى مظلما ، وكان الزنوج الذين يحرسوننى راقدين والنار تخبو ، ولم أعد اسمع شيئا . وحسبت اننى كنت واهما وانطبق جفناى المثقلان ولكننى اسرعت ففتحتهما فى اللحظة التالية على صوت المغنى وهو يغنى اغنية اسبانية بينها هذه الكلمات « انما انا المهرب » .

لم اكن واهما هذه المرة . كان الصوت صوت بيرو وبعد لحظة ارتفع الصوت من جديد وسمعته يردد الكلمات السابقة ، واقبل كلب وراح يتمسح عند قدمى فى مرح . كان راسك . ورفعت عينى . كان يقف امامى رجل اسود،وضوء النهار القى بجوار الكلب ظل سيده العملاق . كان الاسود هو بيرو . وعدت افكر فى الانتقام ، ولكن الدهشة سمرتنى مكانى وعقدت لسانى . لم اكن نائما واذن فالموتى يبعثون . لم يكن هذا حلما وانما كان جسدا حيا امامى . وتحولت عنه فى ذعر ، وعندما راى ذلك تهاوت راسه فوق صدره وتمتم يقول فى صوت خافت :

ــ انك وعدتنى يا أخى الا يرقى الشك الى قلبك ابدا عندما تسمعنى اغنى هذه الاغنية ، فهل نسيت هذا الوعد يا اخى ؟

اعاد الغضب صوتى الى وصحت : ايها الوحش . هانذا اجدك اخيرا ايها الجلاد ، يا قاتل عمى ومختطف زوجتى . كيف تجرؤ وتدعونى اخاك . مكانك ولا تقترب منى .

نسيت اننى موثق القياد واننى لا استطيع ابداء اية حركة فخفضت عينى حولى لكى ابحث عن سيفى . ولم يفته معنى نظرتى وبدا عليه التأثر وقال فى انفعال وفى رفق :

ــ كلا ، كلا . لن اقترب انت تعيس واننى ارثى لك . وانت لا ترثى لى على الرغم من اننى اتعس منك .

هززت كتفى . وادرك هذا العتاب الصامت ، ونظر الى نظرة حالمة ثم قال :

ــ نعم . انك خسرت كثيرا ، ولكن صدقنى ان خسارتى اعظم من خسارتك بكثير .

وايقظ حديثنا حراسى الستة . واذ راوا رجلا غريبا امامى اسرعوا بالنهوض وهم يمسكون اسلحتهم ، ولكن ما ان وقع بصرهم على بيبرو حتى اطلقوا صرخة تدل على الدهشة والسرور وخروا ساجدين امامه .

ولكن هذا الاحترام الذى ابداه الزنوج نحو بيبرو ، واهتمام راسك وتمسحه بسيده وبى فى نفس الوقت وهو ينظر الى فى قلق بسبب برودى فى استقباله . . . لم يستطع كل هذا ان يخفف من غضبى الذى اصبح عاجزا بسبب القيود التى تحول بينى وبين اظهاره .

واخيرا صحت وانا ابكى قهرا تحت القيود التى تشل حركتى : اوه . . اوه . . ما اشقانى !

وكنت قد ندمت لان هذا الشرير قد اوقع بنفسه مواقع الردى وحسبته مات وتحسرت على انتقامى ، ولكن ها هو الآن يأتى لكى يبدى لى احتقاره ، وها هو حى يرزق امام عينى ، واستطيع ان امتع نفسى بتمزيقه اربا . . اوه . . من يفك قيودى هذه ؟

تحول بيبرو نحو الزنوج ، وكانوا لا يزالون يقفون امامه فى خشوع ، وقال :

ــ ايها الرفاق . . . فكوا قيود الاسير .

اطاعه الزنوج على الفور وقطعوا الحبال التى تربطنى الى الشجرة. ونهضت وقد اصبحت حرا اخيرا ، ولكننى بقيت جامدا مكانى وقد الجمتنى الدهشة .

وقال بييرو : ليس هذا كل شىء .

وانتزع خنجرا من احد الجنود وقدمه الى وهو يقول :

- يمكنك الآن ان تشفى غليلك .. يعلم الله اننى لا اجادلك فى حق التصرف فى حياتى . انك انقذتها ثلاث مرات ، وهو الآن لك ، فاضرب اذا شئت .

لم يكن فى صوته عتاب او مرارة ، وانما كان فيه حزن واستسلام .

هذه الطريقة التى فتحت لانتقامى والتى فتحها ذلك الذى اريد النيل منه بالذات كانت كثيرة الغرابة وكثيرة السهولة ، واحسست بان كراهيتى لبييرو وكل حبى لمارى لا يكفيان لحملى على ارتكاب جريمة قتل ، وعلى كل حال ، ومهما تكن الظواهر فان صوتا كان يصرخ فى اعماقى ان عدوا او مذنبا لا يمكن ان يعرض نفسه للانتقام والقصاص . او اقول لكم اخيرا ؟ كان فى العظمة الكبيرة والمهابة اللتين تحوطان هذا الرجل الغريب العجيب شيئا ملك على كل حواسى فى تلك اللحظة رغما عنى . فابعدت الخنجر وانا اقول له :

- اننى اريد ان اقتلك طبعا ايها الشقى ولكن فى معركة ... لا اريد ان اقتلك غيلة ، فدافع عن نفسك .

سالنى مشدوها : ادافع عن نفسى ؟ وممن ؟

- منى انا .

اتى بحركة تدل على الدهشة وقال : منك انت ؟ .. هذا هو الشىء الوحيد الذى لا استطيع ان اطيعك فيه . هل ترى راسك ؟ اننى استطيع ان اذبحه ، ولن يمنعنى من ذلك ، ولكننى لن استطيع ارغامه على ان يدافع عن نفسه منى ، فهو لن يفهمنى عندئذ . وانا لا افهمك ، فانا راسك بالنسبة لك .

واردف يقول بعد صمت : اننى ارى الكراهية فى عينيك كما امكنك ان تراها فى عينى ذات يوم . اعرف انك ابتليت بمصائب كثيرة فقد ذبح عمك واحرقت مزارعك وقتل اصدقاؤك ، ونهبت بيوتك ولكن ليس لى يد فى ذلك وانما هم ابناء عشيرتى . اسمع . اننى قلت لك ذات يوم ان اصحابك اساءوا الى فقلت لى انه ليس لك يد فى ذلك ، فماذا فعلت عندئذ ؟

وانبسطت اساريره وتوقع ان يرانى ارتمى بين ذراعيه . ولكننى نظرت اليه نظرة شذراء وقلت له فى غلظة :

ــ انك تستنكر ما فعلته عشيرتك بى وتنسى ما فعلته انت .

سألنى : وماذا فعلت ؟

اقتربت منه فى شراسة ودوى صوتى كالرعد : اين مارى ؟ .. ماذا فعلت بمارى ؟

عند هذا الاسم مرت سحابة على جبينه وبدا عليه الارتباك لحظة واخيرا قطع حبل الصمت قائلا : ماريا ؟ .. نعم . انك على حق .. ولكن آذانا كثيرة تسمعنا .

اشعل ارتباكه وعبارته « انت على حق » جحيما فى قلبى . وظننت انه يتهرب من سؤالى ، وفى هذه اللحظة نظر الى بوجه منبسط وقال لى فى تأثر كبير .

ــ اتوسل اليك الا تشك فى . ساقول لك كل شىء فى مكان آخر . احببنى كما احبك وثق بى .

وامسك لحظة لكى يرى تأثير كلماته واردف يقول فى رفق : هل استطيع ان ادعوك اخى ؟

ولكن غضبى الفيور كان قد استعاد حدته ، وكلماته الرقيقة بدت لى مخادعة وزادت من عنف حدتى فصحت :

ــ اتجرؤ وتذكرنى بهذا الوقت يا ناكر الجميل ؟

قاطعنى يقول وقد اغرورقت عيناه بالدموع : لست انا ناكر الجميل .

عدت اقول فى حدة : تكلم اذن .. ماذا فعلت بمارى ؟

اجاب : فى مكان غير هذا .. فهنا آذان اخرى تسمع ما تقول . ثم انك لن تصدقنى والوقت يمر . ها هو النهار يطلع ويجب أن انقذك من هنا . اسمع . كل شىء انتهى ما دمت تشك فى ويمكنك ان تقتلنى بهذا الخنجر ، ولكن انتظر قليلا قبل ان تقدم على ما تقول انه انتقام . يجب ان انقذك اولا . تعال معى لنلقى بياسو .

طريقته هذه فى التحدث والتصرف كانت تخفى سرا لم استطع ان افهمـــه . ورغم كل ظنونى به كان صوته يحرك حبلا فى قلبى ، ولا ادرى اية قوة كانت تسيطر على ، ورايت نفسى اتردد بين الانتقام والرثاء وبين الحذر والثقة العمياء . وتبعته .

— ٤١ —

خرجنا من المعسكر الذى يقيم فيه بوج جارجال . ودهشت وانا ارى اننى امشى طليقا فى ذلك المعسكر الهمجى حيث كان كل زنجى منهم يتعطش لدمى . وبدلا من ان يتعرض الزنوج لنا كانوا ينحنون امامنا بـكل احترام وسرور . ولم اكن ادرى منزلة بيبرو فى جيش الثوار ولكننى تذكرت سلطته القديمة التى كان يمارسها على زملائه فى العبودية ، وادركت دون مشقة الاهمية التى يبدو انه يحظى بها بين زملائه المتمردين .

واذ بلغنا خط الحراس القائمين على حراسة مغارة بياسو اقبل الينا زعيمهم الخلاسى كاندى وهو يســـالنا من بعيد مهددا ومتوعدا كيف نجرؤ على الاقتراب من الجنرال بهذه الصـــورة ، ولكن عنـدما سمحت له المسافة بأن يتبين ملامح بيبرو رفع قبضته الموشاة بالذهب فجاة ، وكما لو انه ريع من جراته هو بالذات انحنى حتى كادت جبهته تلمس الارض وادخلنا بجوار بياسو وهو يتمتم بعبارات لم يرد بيبرو عليها الا بحركة غامضة .

لم يدهشنى الاحترام الذى يبديه السود نحو بييرو ولكننى حين رايت كاندى ، وهو احد ضباطهم الرئيسيين يبدى كل هذا الخشوع امام عبد عمى رحت اتساءل من يكون هذا الرجل الذى يبدو ان سلطانه عظيم هكذا . وكان الامر شيئا آخر عندما دخلنا على القائد العام ، وكان جالسا وحده ياكل بعض الفاكهة فى هدوء ، فما ان راى بييرو حتى نهض مسرعا محاولا اخفاء دهشته وارتباكه وخيبة امل كبيرة تحت مظاهر احترام عميق ، وانحنى فى خشوع أمام رفيقى وقدم له عرشه . ولكن بييرو رفض قائلا :

ـ لم آت يا جان بياسو لكى آخذ مكانك ، انما اتيت لكى اطلب منك صنيعا فحسب .

اجابه بياسو وهو يضاعف من تحياته واحتراماته : انت تعرف يا صاحب السمو انك تستطيع التصرف فى كل ما يملكه جان بياسو، بل بجان بياسو نفسه .

واذ سمعته يدعو بييرو بصاحب السمو ، وهو لقب رفيع ، زادت دهشتى . واجابه بييرو على الفور :

ـ لست اطلب منك شيئا من ذلك .. لا اطلب منك الا حياة وحرية هذا الرجل .

واشار بيده الى . وذهل بياسو ولكن تردده لم يطل لانه اسرع يقول :

ـ اننى شديد الحيرة يا صاحب السمو ، فانت تطلب منى اكثر مما استطيع ان امنحه اياك ، وهذا امر مؤسف جدا . ان هذا الاسير ليس ملكا لجان بياسو ، ولا شأن لبياسو به .

ساله بييرو فى حدة : ماذا تعنى ؟ .. شأن من اذن ؟ .. أتوجد هنا سلطة غير سلطتك ؟

ـ نعم يا صاحب السمو ، للأسف .

ـ سلطة من اذن ؟

ـ سلطة جيشى .

كانت الرقة والدهاء الذى يتهرب بياسو بهمـــا من اسئلة بيرو الواضحة المترفعة تدل على انه لا يريد ان يمنح الآخر اكثر من الاحترامات التى يبدو انه مضطر اليها ، وصاح بيرو يقول :

ــ كيف ؟ .. جيشك ؟ .. او لست انت قائده .

واحتفظ بياسو بميزته دون ان يتخلى مع ذلك عن تواضعه وخشوعه واجاب يقول متظاهرا بالاخلاص :

ــ هل تظن يا صاحب السمو اننا نستطيع حقا قيادة رجال لا يثورون الا لـكى لا يطيعون ؟

لم اكن اعبا كثيرا بالحياة لـكى اقطع هذا الصمت ، ولكن ما رايته بالامس من سلطان بياسو غير المحدود على جنوده كان يمـكننى ان يحملنى على تكذيبه واظهار ريائه غير ان بيرو خاطبه قائلا :

ــ اذا كنت لا تعرف كيف تقود جيشك واذا كان جنـــودك هم رؤساؤك فما هى الاسباب التى يمكن ان تدعوهم لكراهية هــذا السجين ؟

قال بياسو وهو يخفى قسوته وتهكمه تحت ستار من الحزن : ان بوكمان لقى حتفه على ايدى رجال الحكومة . وقد عزم رجالى على الانتقام له من هذا الابيض ويريدون ان يعلقوا راسه كما علقوا هم راس بوكمان .

قال بيرو : وكيف توافق على مثل هذا العمل الفظيع ؟ اصغ الى ياجان بياسو . ان هذه الفظائع هى التى ستتسبب فى ان نخسر قضيتنا . كنت اسيرا فى معسكر البيض ، وقد تمكنت من الفرار ولم اكن اعرف ان بوكمان قتل كما تقول انت . هذا قصاص عادل من السماء لما جنته يداه من جرائم . ساطلعك على نبا آخر . ان جانو ، زعيم الزنوج الذى قاد البيض الى كمين فى دوميت مولاتر قد مات هو الآخر ، وانت تعرف ان جانو هذا كان لا يقل قسوة وفظاعة عن بوكمان . حسنا ... اسمعنى جيدا . ان جانو هذا لم تنقض عليه صاعقة من السماء ولم يقتله البيض ، وانما جان فرانسوا نفسه هو الذى اوقع به هذا القصاص العادل .

وكان بياسو يصغى فى احترام كئيب فاطلق صيحة دهشة . وفى هذه اللحظة دخل ريجو وحيا بييرو فى احترام كبير ثم همس فى اذن بياسو ببضع كلمات . وارتفع فى الخارج صخب كبير ، فى حين استطرد بييرو :

ـ نعم . ان جان فرانسوا الذى لا عيب فيه الا حبه للترف والبذخ والظهور فى تلك العربة الفخمة ذات الجياد الستة المطهمة التى تنقله كل يوم من معسكره الى الكنيسة للصلاة .. جان فرانسوا هذا عاقب جانو لما اتاه من فظائع واعدمه رميا بالرصاص امس على الرغم من توسلاته ، عند نفس الشجرة التى كان يعلق عليها ضحاياه وهم احياء ، ففكر فى هذا المثل يا بياسو .. لم هذه المذابح التى تضطر البيض الى القسوة ؟ ان بين جنودنا دجالاً خلاسيا يدعى رومين ويدعى النبوة ويحرض السود ويقنعهم بأن مارى العذراء تتصل به ويدفع زملاءه الى القتل والسلب باسمها .

وقد نطق بييرو باسم مارى فى شىء من الرقة والاحترام ، ولا ادرى كيف تم هذا ، ولكننى احسست عندئذ بالمهانة والاستياء .

واستطرد بييرو يقول : حسنا . وان لديك فى معسكرك رجالا من هذا النوع ، وانا اعلم انه لابد لك وانت تقود جيشا كبيرا مكونا من رجال من جميع البلاد ومن كل الاجناس ، لابد لك من رابطة بينك وبينهم ، ولكن الا يمكن ان تجد هذه الرابطة فى رجل بعيد عن التعصب والقسوة والشعوذة ؟ صدقنى يا بياسو ، ان البيض اقل منا ، فقد رايت كثيرا من المزارعين يدافعون عن حياة عبيدهم ، وانا لا اجهل ان هناك من يفضل الذود عن ماله قبل ان يذود عن عبيده ، ولكنهم ينظرون الى مصلحتهم على الاقل . ومصلحتنا هى الا نكون اقل رحمة منهم . اتكون قضيتنا اشد قدسية واكثر عدلا اذا نحن ابدنا النساء وذبحنا الاطفال وعذبنا الشيوخ وحرقنا المستعمرين فى ديارهم ؟ ومع ذلك فهذا ما نقوم به كل يوم . اجبنى يا بياسو ، هل يجب ان يكون الاثر الذى نتركه خلفنا اثر دماء او حريق دائما ؟

وسكت ، وقد اكسبته ومضة عينيه ورنة صوته قوة اقناع وسلطة لا يمكن التغلب عليها ، واطرق بياسو وبدا كثعلب امام اسد يحاول ان يهتدى الى حيلة يستطيع ان يفلت بها من كل هذه القوة . وفيما هو يفكر بدا ريجو ، زعيم المكايا الذى راى الكثير من الفظائع ترتكب امام عينيه انه يستنكر الاهوال التى رسم بييرو صورة لها وقال وهو يتظاهر بالاستياء :

ـ يا الهى .. ويا للفظائع التى يرتكبها شعب غاضب !

ـ ٤٢ ـ

هذا والصخب فى الخارج يتزايد ويبدو انه يثير بياسو . وقد علمت فيما بعد ان هذا الصخب كان مصدره رجال مورن روج الذين كانوا يطوفون بالمعسكر ويعلنون نبأ عودة منقذى ويبدون رغبتهم فى مساعدته مهما يكن السبب الذى دفعه الى اللجوء الى بياسو . وقد اقبل ريجو ليخبر القائد العام بذلك ، وخوف بياسو من حدوث انشقاق وخيم العاقبة هو الذى دفعه الى ذلك التنازل الذى ابداه ازاء رغبة بييرو ، فقد قال له فى خيبة امل ظاهرة :

ـ اذا كنا قساة نحو البيض فانت قاس نحونا ، وتخطىء اذ تتهمنى بعنف التيار ، فهو يجذبنى رغما عنى . ولكن ماذا يمكننى ان افعل لارضائك .

اجاب بييرو : لقد قلت لك ذلك .. دع الاسير يمضى معى .

فكر بياسو لحظة ثم صاح وهو يضفى على وجهه اقصى ما يمكنه من سمات الصراحة :

ـ حسنا يا صاحب السمو . اريد ان ابرهن لك عن رغبتى فى ارضائك . ولكن اسمح لى بكلمتين اقولهما للأسير على حدة . وله مطلق الحرية فى ان يمضى معك بعد ذلك .

اجاب بييرو : اذا كان الأمر كذلك فلكَ ما تريد .

واخذنى بياسو فى ركن من المغارة وقال لى فى صوت خافت : لا استطيع ان امنحك الحياة الا بشرط واحد انت تعرفه ، فهل تقبل ؟

وارانى رسالة جان فرانسوا ، ورايت فى الموافقة خسة وجبنا فقلت : كلا .

قال مزمجرا : آه . ما زلت على عنـــادك ؟ اتعتمد اذن على نصيرك ؟ .. هل تعرف من هو ؟

اجبته فى حدة : نعم . انه وحش مثلك ، ولكنه اكثر منك خبثا ورياء .

اعتدل فى وقفته وبدا عليه الذهول ، وحاول ان يرى فى عينى اذا كنت مجدا فى قولى ، وقال :

— ماذا ؟ .. اذن فانت لا تعرفه .

اجبت فى احتقار : لا اعرف فيه الا عبدا لعمى يدعى بييرو .

زمجر بياسو للمرة الثانية وقال : ها .. ها .. هذا غريب . انه يريد ان يرد لك حياتك وحريتك وانت تدعوه « وحشا » مثلى .

قلت : وماذا يهمنى ؟ لو نلت حريتى لحظة واحدة فلن يكون ذلك لكى اساله العفو عنى وانما لكى اسلبه حياته .

قال بياسو : ما هذا الذى تقول ؟ يبدو انك مجد فى قولك وانك لست هازلا . ان فى هذه المسالة شيئا لا افهمه . ان هذا الرجل يبسط حمايته عليك ولكنك تكرهه . وهو يطلب العفو عنك فى حين انك تريد له الموت . ولكن هذا سيان عنـدى . انك تريد ان تنال حريتك لحظة ، وهذا هو الشىء الوحيد الذى يمكننى ان امنحك اياه . سادعك تمضى معه ، ولكن اقسم لى بشرفك ان تعود وتسلم نفسك قبل مغيب الشمس .. انت رجل فرنسى .

ماذا اقول لكم ايها السادة ؟ .. كانت الحياة ثقيلة على ، ثم اننى كرهت ان يكون لبييرو الفضل فى الابقاء على ، والظواهر كلها تحملنى على كراهيته . لا ادرى هل دخل فى حسابى ان بياسو لن يتخلى

عن فريسته بسهولة وانه لن يطلق سراحى ابدا لهذه السبب ؟ لم اكن اريد فى الواقع الا بضع ساعات من الحرية لكى اعرف قبل ان اموت مصير حبيبتى مارى ، والقسم الذى يطلبه منى بياسو ووثوقه فى الشرف الفرنسى كان وسيلة اكيدة وسهلة للحصول على يوم آخر . ولهذا اقسمت .

وبعد ان قيدنى الزعيم بهذه الصورة عاد الى بييرو وقال فى خشوع :

ــ الأسير الابيض تحت تصرفك يا صاحب السمو ، ويمكنك ان تصطحبه فله مطلق الحرية فى ان يتبعك .

ولم ار ابدا مثل هذه السعادة فى عينى بييرو . وصاح يقول وهو يبسط له يده :

ــ شكرا يابياسو . انك اسديتنى صنيعا جليلا ويحق لك ان تطلب منى ما تشاء فى اى وقت ، ولك ان تفعل ما تريد باخوانى المورن روج الى ان اعود .

وتحول الى وقال : اما وقد اصبحت حرا فتعال معى .

وجرنى بقوة عجيبة ، ونظر بياسو الينا ونحن نخرج فى شىء من الدهشة تغلبت على مظاهر الاحترام التى شيع بها بييرو .

ــ ٤٣ ــ

كنت متلهفا لكى انفرد ببييرو ، فان ارتباطه حين سالته عن مصير مارى والرقة الوقحة التى جرؤ بها على النطق باسمها اهاجا غيرتى، تلك الغيرة التى ضاعفت من قسوة قلبى عليه منذ ان اختطف مارى اثناء الحريق .

فيم يهمنى بعد ذلك اللوم الشديد الذى وجهه لبياسو الدامى امامى ، وحرصه على حياتى ، وتلك الشهامة الغريبة التى تتسم بها كل كلماته وكل تصرفاته . وفيم يهمنى ذلك السر الذى يحيط به

والذى يظهره على قيد الحياة بعد ان حسبت اننى شهدت موته والذى عرفت انه وقع اسيرا فى ايدى البيض بعد ان رايته يغوص فى مياه النهر الكبير والذى تغير من عبد الى صاحب سمو ومن اسير الى منقذ .. من كل هذه الامور الغامضة التى لا افهم منهـا اشياء كان الشىء الوحيد الواضح امامى هو اختطاف مارى الفظيع وهو اهانة لابد لى من ان انتقم لها ، وجريمة لابد لها من قصاص . وان ما حدث أمام عينى من امور غريبة يكاد يـكفى لـكى ارجىء انتقامى ، وانتظرت فى فروغ صبر اللحظة التى استطيع ان ارغم فيها غريمى على تفسير موقفه ، وقد جاءت هذه اللحظة اخيرا .

وكنا قد مررنا بصفوف الجنــــود السود الذين خروا ساجدين امامنا وهم يقولون : يا للمعجزة ... انه لم يعد اسيرا .

ولا ادرى هل كانوا يتكلمون عنى او عن بييرو . وكنا قد اجتزنا آخر حدود المعســـكر واختفى آخر حراس بياسو خلف الاشجار والصخور . وكان راسك يجرى امامنا مرحا طروبا ثم يعود الينا ، وكان بييرو يمشى مسرعا فأوقفته فجاة وقلت له :

ــ اسمع . لا فائدة من المضى معك الى ابعد من هذا فان الآذان التى كنت تخشاها لم تعد تستطيع ان تستمع الينا . تكلم . ماذا فعلت بمارى ؟

وكان صوتى يتهدج من الانفعال والغضب ، ولكنه نظر الى فى رفق وقال : دائما !

صحت محنقا : نعم ، دائما .. دائما .. لن اكف عن القاء هذا السؤال حتى آخر رمق لى وحتى آخر رمق لك . اين مارى ؟

ــ اما من شىء يمكن ان يزيل عنك شكوكك فيما يتعلق باخلاصى لك ؟ سوف تعرف ذلك قريبا .

قلت : بل والآن حالا ايها الوحش . اريد ان اعرف ذلك الآن . اين مارى ؟ هل تسمع ؟ اين مارى ؟ اجب والا فالموت بيننا ... دافع عن نفسك .

اجاب فی اسی : قلت لك اننی لا استطیع ذلك . ان السیل لا یمكن ان یقاوم المنبع ، وحیاتی التی انقذتهـــا انت ثلاث مرات لا یمكن ان تقاوم حیاتك ، ولو اننی اردت لاستحال علی ذلك ، فلیس لدینا غیر خنجر واحد .

وجرد خنجره وهو یقول ذلك وقدمه الی قائلا : خذ .

وكنت قد خرجت عن طوری فاخذت الخنجر وشهرته فـوق صدره . ولكنه لم یفكر فی الخلاص منه .

قلت له : ایها الشقی . لا ترغمنی علی ارتكاب جریمة قتل ساغمد هذا فی صدرك اذا لم تقل لی این زوجتی الآن حالا .

اجابنی دون غضب : انت السید واننی اضرع الیك ان تمهلنی ساعة اخری وان تتبعنی . انك تشك فی رجل یدین لك بحیاته ثلاث مرات ، فی ذلك الذی كنت تدعوه اخاك ، فاسمع ... اذا كنت لا تزال تشك فی بعد ساعة فانت حر فی ان تقتلنی . وانت تری اننی لا ارید ان اقاومك . اضرع الیك باسم ماریا (واردف یقول فی مشقة) زوجتك ... ساعة اخری ، واذا كنت اتوسل الیك هكذا فلیس ذلك لاجلی ، انما لاجلك انت .

وكانت تشوب صوته رنة من الاقناع والاسی . ولعله كان یقول الصدق . وخوفه علی حیاته ما كان لیكفی لكی یضفی علی صوته هذا الابتهال الحنـــون . وبدا لی انه لا یتوسل من اجل ذاته ، وخضعت مرة اخری لهذا المیل الغریب الذی یمارسه علی والذی خجلت فی ذلك الوقت من الاعتراف به . وقلت :

– حسنا ... اننی امهلك ساعة . وسامضی معك .

واردت ان اعید الیه الخنجر ، ولكنه قال : كلا . ابقه معك ، فانت ما زلت مرتابا فی . ولكن هلم بنا وكفی مضیعة للوقت .

راح يتقدمنى . وكان راسك قد حاول مرارا ان يعاود السير اثناء حديثنا ويعود كل مرة وهو ينظر الينا كأنه يسألنا عن سبب وقوفنا . واذ رآنا نمشى من جديد انطلق وقد بدا عليه المرح .

وتغلغلنا فى غابة عذراء ، وبعد نصف ساعة تقريبا وصلنا مغارة جميلة خضراء يرويها جدول صغير وتحيط بها اشجار ضخمة تبلغ من العمر مئات السنين بينها مغارة مدخلها تخفيه عن الابصار اعشاب متسلقة ومتعرشة . وهم راسك بأن ينبح ولكن بييرو اشار اليه فسكت ، وبدون ان ينطق بكلمة اخذنى من يدى الى المغارة .

وكانت هناك امراة تولى ظهرها الى باب المغارة وتجلس على بساط من نسيج الحلفاء التفتت عندما سمعت وقع خطواتنا .

كانت هى مارى يا اصدقائى .

وكانت ترتدى ثوبا ابيض كيوم زفافنا وتضع فى شعرها تاج الزهور البرتقالية التى لم اقربها بيدى فى ذلك اليوم . وراتنى وعرفتنى وأطلقت صرخة وهوت بين ذراعى وهى تكاد تطير من الفرح والدهشة . اما انا فكنت مذهولا .

وجاءت على صرختها امراة عجوز تحمل بين ذراعيها طفلا ، اسرعت من غرفة اخرى فى آخر المغارة ، وكانت هى مربية مارى ، اما الطفل فكان آخر وليد لعمى المسكين . وكان بييرو قد خرج ليأتى بماء من العين المجاورة . ورش قطرات منه على وجه مارى فأفاقت من اغمائها وفتحت عينيها وقالت :

— ليوبولد ... حبيبى ليوبولد .

واجبتها : مارى ...

وانتهت بقية كلماتنا فى قبلة .

وصاح صوت مؤثر يقول : ليس امامى .

والتفتنا واذا به بييرو . كان واقفا يشهد فرحتنا كشهيد ، وكان صدره المنتفخ يعلو ويهبط والعرق البارد يتصبب من جبينه . كانت كل اعضائه ترتجف . وفجاة دفن وجهه بين يديه وهرب من المغارة وهو يقول فى صوت مخيف : ليس امامى .

واعتدلت مارى وهى بين ذراعى وهتفت وهى تتابعه ببصرها : يا الهى ! اى حبيبى ليوبولد .. يبدو ان حبنا يؤلمه ... اتراه يهوانى ؟

ايقنت من صيحة العبـــد انه غريمى ، ومن صيحة مارى انه صديقى .

اجبتها وانا اشعر بسعادة غامرة تدخل قلبى وبندم كبير فى نفس الوقت :

— مارى .. اكنت تجهلين ذلك يا مارى ؟

اجابتنى فى حياء ظاهر : وما زلت اجهله .. كيف .. يحبنى ؟ .. لم الحظ ذلك ابدا .

ضممتها الى صدرى وانا سكران وقلت : اننى وجدت زوجتى وصديقى من جديد . ما اسعدنى ! وما اعظم ذنبى .. لقد ارتبت فيه .

اجابت مشـــدوهة . كيف هذا ؟ . فى بييرو .. أوه . نعم .. انك اذنبت فى حقه .

واردفت تقول وهى تخفض عينيها : انك تدين له بحياتى مرتين، وربما اكثر ، فبدونه لالتهمنى التمساح ، وبدونه لوقعت فى ايدى الزنوج .. فهو الذى انتزعنى من بين ايديهم فى نفس اللحظة التى اوشكوا فيها أن يلحقونى بابى المسكين .

وامسكت عن الكلام وراحت تبكى فسالتها :

— ولماذا لم يرسلك بييرو الى مدينة الكاب ، الى زوجك ؟

اجابت : انه حاول ذلك ، ولكنه لم يستطع ، فقد تعذر عليه ذلك لأنه كان لابد له من الاختفاء من السود والبيض فى نفس

الوقت . ثم اننا لم تكن نعرف ما حدث لك فقد قال البعض انهم راوك تلقى حتفك ، ولكن بييرو اكد لى العكس ، وكنت واثقة من ذلك لانه لو كان قد حدث لك شيء لاستشعرت به ، ولو انك مت حقا لمت انا كذلك .

ـ اذن جاء بييرو بك الى هذا المكان ؟

ـ نعم يا حبيبى ليوبولد . فهذه المغارة فى مكان منعزل ولا يعرف بامرها احد غيره . وانقذ ما بقى من اسرتى فى نفس الوقت ، أى مربيتى العجوز واخى الصغير ، واخفانا فى هذه المغارة . واؤكد لك انها مريحة جدا ، والآن وقد لحق بنا الخراب فانه يروق لى الاقامة فيها معك . وكان بييرو يوفر لنا احتياجاتنا . فقد كان يأتى غالبا ، وكان يضع ريشة حمراء فوق راسه ، وكان يواسينى ويحدثنى عنك ويؤكد لى انه سيعيدنى اليك . ومع ذلك واذ لم أره منذ أيام ثلاثة فقد بدأت أقلق ولكنه عاد معك . اذن فقد ذهب هذا الصديق لكى يبحث عنك .

اجبتها : نعم .

قالت : ولكن كيف يستقيم الوضع اذا كان يحبنى . هل انت واثق ؟

قلت : اننى اصبحت واثقا الآن ، فهو الذى هم بأن يطعننى ورد يده خوفا من ان يتسبب فى ايلامك ، وهو الذى كان يغنى اغنية الحب ونحن فى الاستراحة .

عادت مارى تقول فى لهجة ساذجة : حقا ؟ .. هو غريمك اذن ؟ .. اعنى ان الرجل البغيض صاحب باقة الاقحوان ، هو بييرو الطيب .. لا استطيع ان اصدق هذا . لقد كان مهذبا جدا معى ، وشديد الاحترام ... كان يحترمنى اكثر مما كان يفعل وهو عبد لنا . صحيح انه كان ينظر الى احيانا نظرات غريبة ... ولكن لم يكن ذلك الا حزنا وكنت انسب ذلك الى مصيبتى . لو تدرى مبلغ

اخلاصه وهو يحدثنى عن حبيبى ليوبولد ... ان صداقته كانت تتحدث عنك كما يحدثنى حبى عنك تقريبا .

اطربتنى ايضاحات مارى وأثارت حزنى فى نفس الوقت ، فقد تذكرت الحدة التى عاملت بها بيرو الوفى واحسست بكل القوة التى كانت تكمن فى لومه الرقيق وهو يقول لى فى خضوع : لست انا ناكر الجميل .

دخل بيرو فى هذه اللحظة . كانت سحنته كئيبة حزينة ، وبدا كما لو كان محكوما عليه بالموت ، عانى اشد انواع التعذيب . وتغلب عليها . وتقدم نحوى فى خطوات بطيئة وقال لى فى لهجة يشوبها الجد وهو يشير الى الخنجر الذى كنت وضعته فى حزامى .

ـ لقد انقضت الساعة .

قلت : الساعة ؟ .. اية ساعة ؟

ـ تلك التى منحتنى اياها . كنت بحاجة اليها لكى آتى بك هنا . وقد توسلت اليك عندئذ ان تمنحنى الحياة ، والآن اتوسل اليك ان تسلبنى اياها .

تجمعت فى هذه اللحظة كل مشاعر القلب الرقيقة ... الحب والصداقة والعرفان بالجميل لكى تمزقنى تمزيقا ووقعت عند قدمى العبد من غير ان استطيع النطق بكلمة واحدة وانا ابكى احر بكاء . ورفعنى مسرعا وهو يقول :

ـ ماذا تفعل ؟

ـ اننى ارد لك الاعتبار الذى ادين لك به . اننى لست جديرا بصداقة كصداقتك . ان اعترافك بالجميل لا يمكن ان يذهب الى حد ان تغفر لى جحودى بجميلك .

ارتسم على وجهه تعبير فيه كثير من الخشونة . كان يبدو انه يعانى من معارك نفسية عنيفة . وتقدم نحوى خطوة ثم ارتد . وفتح فمه ثم اطبقه . ولكن هذه اللحظة كانت قصيرة فقد فتح لى ذراعيه قائلا :

ـ هل استطيع الآن ان ادعوك اخى ؟

وكان جوابى ان ارتميت على صدره .

واردف يقول بعد سكتة قصيرة : انت كريم ، ولكن المصائب جعلتك ظالما .

قلت له : اننى وجدت اخى ولم اعد تعيسا ولكننى اذنبت فى حقك كثيرا .

ـ اذنبت ؟ .. انا الآخر اذنبت فى حقك يا اخى .. واذنبت اكثر منك ، ولكنك لم تعد تعيسا الآن ، اما انا فسابقى تعيسا الى الابد ..

ـ ٤٥ ـ

خبت فورة الصداقة التى اضاءت وجهه ، وارتسمت على ملامحه سمات حزن عميق ، وقال فى برود :

ـ اصغ الى . كان ابى ملكا على كاكونجو ، وكان يصدر احكامه العادلة امام بيته ، وكان كلما اصدر حكما يحتسى ، كما هى عادة الملوك ، قدحا مملوءا بنبيذ النخيل ، وكنا سعداء واقوياء . وجاء الاوربيون وزودونا بهذه المعارف الخادعة التى خدعتك . وكان زعيمهم ضابطا اسبانيا وعد ابى ببلاد اوسع من بلاده ، فتبعه ابى هو واسرته ... فهل تعرف ماذا فعل هذا الضابط يا اخى ؟ .. انه باعنا .

وانتفخ صدر الاسود ولمعت عيناه ، وحطم بطريقة آلية شجرة صغيرة بجواره ثم استطرد يقول دون ان يبدو عليه انه يخاطبنى :

ـ واصبح ملك كاكونجو سيدا ، واصبح ابنه عبدا فى بلاد سانتو دومينجو ، وفرقوا بين الاسد الصغير وابيه الشيخ لكى يسهل ترويضهما ، وانتزعوا الزوجة من زوجها ، وبحث الاولاد عن الام التى اطعمتهم وعن الاب الذى كان يمضى بهم الى النهر

للاستحمام ولم يجدوا امامهم غير طغاة برابرة ، ورقدوا بين الكلاب .

ولزم الصمت لحظة وتحركت شفتاه من غير ان يتكلم . وكانت نظرته ثابتة وشاردة . وامسك بذراعى اخيرا وقال فى حدة :

ـ هل تسمع يا اخى ؟ باعونى لأسياد كثيرين كبهيمة من البهائم . هل تتذكر تعذيب اوجيه ؟ .. فى ذلك اليوم رايت ابى .. اسمع .. كان هذا فى الطريق .

وارتجفت فى حين اردف هو يقول : ماتت زوجتى ، وطلبت منى ان انتقم .

واستطرد يقول وهو يطرق براسه الى الارض : هل اقول لك ؟ .. لقد كنت مجرما ، فبعد ان ماتت احببت غيرها . ولكن دعنا من هذا ... راحت كل عشيرتى تلح على لكى انقذهم وانتقم لنفسى . وكان راسك يأتينى برسائلهم ، ولم يكن باستطاعتى ارضائهم ، فقد كنت انا نفسى سجينا فى سجن عمك . وفى اليوم الذى حصلت انت فيه على العفو عنى ، مضيت لكى انتزع اولادى من ايدى سيد مستبد . وعندما وصلت يا اخى كان آخر احفاد ملك كاكونجو يحتضر على اثر تعذيب رجل ابيض . وكان الآخرون قد سبقوه .

وامسك لحظة وسألنى فى برود : اخى ... ماذا كنت تستطيع ان تفعل ؟

جمدت هذه القصة المحزنة اطرافى من الهول ، ورددت على سؤاله بحركة تنطق بالتهديد والوعيد . وفهمنى وابتسم فى مرارة ثم استطرد :

ـ ثار العبيد على سيدهم واقتصوا منه لقتل اولادى وانتخبونى رئيسا لهم ، وانت تعرف المصائب والفظائع التى جرها هذا التمرد ، وعلمت ان عبيد عمك يستعدون للتمرد هم الآخرون فاسرعت الى الاكول فى نفس ليلة التمرد . وكنت انت غائبا ولقى عمك حتفه وهو فى فراشه واحرق السود املاكه . واذ لم استطع تهدئة

غضبهم لاعتقادهم انهم يثارون لى باحراقهم املاك عمك اضطررت ان انقذ ما تبقى من افراد أسرتك ودخلت الحصن من الفتحة التى سبق ان اعددتها ، وعهدت بمربية زوجتك الى اسود مخلص ، ووجدت مشقة كبيرة فى انقاذ ماريا ، فقد أسرعت الى المكان المشتعل من الحصن لكى تنقذ اصغر اخوتها ، وهو الوحيد الذى نجا من المذبحة . واحاط بها بعض الزنوج واوشكوا على الفتك بها ولكننى تقدمت وامرتهم ان يتركونى انتقم لنفسى بنفسى . واخذت زوجتك بين ذراعى وعهدت بالطفل الى راسك ، واتيت بهما الى هذه المغارة التى كنت اعرف وحدى مكانها . هذه هى جريمتى يا اخى .

راح ضميرى يبكتنى اكثر من ذى قبل ، واحسست بالامتنان فى نفس الوقت . واردت ان ارتمى عند قدمى بيبرو مرة اخرى ، ولكنه اوقفنى فى استياء وقال وهو يمسكنى من يدى :

ــ هيا ، تعال ... اصطحب زوجتك ولنرحل نحن الخمسة .

وسألته فى دهشة اين يريد ان يمضى بنا فأجابنى :

ــ الى معسكر البيض ، فهــذا المكان غير آمن ، فان البيض سيهجمون على معسكر بياسو فى صباح الغد ، وسوف تشتعل الغابة كلها دون شك ، ثم انه لا يجب ان نضيع لحظة واحدة فان عشرة رءوس تضمن راسى ، وفى استطاعتنا الاسراع لأنك حر طليق .

ازدادت دهشتى عند سماعى هذه الكلمات ، وسألته عن معناها فقال فى فروغ صبر :

ــ الم تسمع أن بوج جارجال وقع اسيرا .

ــ بلى . ولكن ما شانك انت ببوج جارجال ؟

ارتسمت امارات الدهشة على وجهه هو الآخر واجاب فى لهجة خطيرة : انا هذا البوج جارجال .

والحق اننى اعتدت المفاجآت مع هذا الرجل ، وقد دهشت وانا ارى قبل ذلك بلحظة العبد بيبرو يتحول الى ملك افريقى وازددت

دهشة واعجابا الآن وانا ارى فيه بوج جارجال ، زعيم متمردى المورن روج الكريم الرهيب . وفهمت اخيرا سبب الاحترام الذى يبديه كل المتمردين ، بما فيهم بياسو نفسه ، لبوج جارجال ، ملك كاكونجو .

وبدا انه لم ير الانطباع الذى احدثته فى نفسى كلماته الاخيرة ، وعاد يقول :

ـ وقد قيل لى انك وقعت اسيرا فى معسكر بياسو فاتيت لكى احررك .

ـ لماذا قلت لى اذن منذ لحظة انك لست حرا ؟

نظر الى كما لو كان يحاول ان يخمن ما الذى حملنى على القاء هذا السؤال الطبيعى ثم قال :

ـ اسمع . كنت صباح اليوم اسير عند قومك ، وسمعتهم يقولون فى المعسكر ان بياسو قد عقد النية على اعدام اسير شاب اسمه ليوبولد دوفرنى عند مغيب الشمس . وقد عززت الحراسة حولى ، وعلمت ان اعدامى سوف يلى اعدامك ، واننى اذا هربت فسوف يعدمون عشرة من زملائى بدلا منى ، فهل فهمت الآن سبب عجلتى .

صحت اسأله : اذن فانت قد هربت ؟

ـ وكيف كان يتسنى ان اكون هنا بغير ذلك ؟ اما كان يجب ان انقذك ؟ السنت مدينا لك بالحياة ؟ .. هيا ، اتبعنى الآن . اننا على مسيرة ساعة من معسكر البيض ومعسكر بياسو معا . انظر ... ان الظل يمتد على اشجار جوز الهند ، وسوف تغيب الشمس بعد ثلاث ساعات . تعال يا أخى فان الوقت يمضى سراعا .

سوف تغيب الشمس بعد ثلاث ساعات ! .. جمدت هذه الكلمات الرهيبة الدماء فى عروقى واعادت الى ذاكرتى الوعد الذى قطعته لبياسو . وا اسفاه .. اننى ، عندما رايت مارى لم اعد افكر فى فراقنا الابدى القريب . لم اشعر الا بالسرور والنشوة ، فان شتى الانفعالات التى مرت بى انستنى موتى فى غمرة سعادتى . ولكن

عبارة صديقى ردتنى الى الحقيقة المرة .. بعد ثلاث ساعات ستغيب الشمس . كنت بحاجة الى ساعة لكى ابلغ معسكر بياسو . كان واجبى محدودا يفرضه على الشرف ، فقد اعطيت كلمتى لذلك الهمجى ، واننى لأفضل الموت على ان اقدم له الفرصة فى احتقار الشىء الوحيد الذى يبدو انه ما زال يؤمن به ، واعنى به شرف رجل فرنسى . كان الاختيار رهيبا ، ولكننى اخترت ما يجب ان افعل غير اننى اعترف ايها السادة اننى ترددت لحظة ... افهل اذنبت ؟

– ٤٧ –

واخيرا اطلقت زفرة حافلة بالاسى واخذت بيد بوج جارجال وامسكت بيد زوجتى مارى المسكينة التى راحت تنظر الى فى قلق الى السحابة الكئيبة التى انتشرت على ملامحى . وقلت وانا ابذل جهدا كبيرا :

– اى بوج جارجال .. اننى اعهد اليك بالكائن الوحيد الذى احبه اكثر منك ... عد بها الى المعسكر وحدها لأننى لا استطيع مرافقتكما .

صاحت مارى وهى تلهث : رباه ! .. امصيبة اخرى ؟

ارتجف بوج جارجال وارتسمت فى عينيه الدهشة البالغة وقال : ماذا تقول يا اخى ؟

وازاء الرعب الذى رايته على وجه مارى وخوفها من مصيبة اخرى دفعتها رقتها المفرطة الى توقع حدوثها رايت ان الواجب يحتم على ان اخفى عنها الحقيقة وان اوفر عليها وداعا مؤثرا فانحنيت فوق اذن بوج جارجال وقلت له فى صوت خافت :

– اننى اسير ، وعدت بياسو ان اعود واضع نفسى بين يديه قبل مغيب الشمس . اننى وعدته ان اموت .

وثب لفرط الغضب وصاح يقول : يا للوغد ! .. الهذا اراد ان يتحدث معك على حدة ؟ .. لكى ينتزع منك هذا الوعد ؟ .. كان يجب ان ارتاب فى هذا الشقى بياسو . كيف لم اتوقع منه مثل هذا الغدر ؟ .. انه ليس اسود وانما هو خلاسى .

قالت مارى مذعورة : ما الخبر ؟ .. واى غدر ؟ .. واى وعد ؟.. من هو بياسو ؟

قلت لبوج جارجال فى صوت خافت : اسكت .. اسكت .. لا داعى لافزاع مارى .

قال متجهما : حسنا . ولكن كيف قبلت ان تعطيه هذا الوعد ؟ ولماذا وعدته ؟

— ظننتك ناكرا للجميل ، وحسبت مارى من الهالكين ، ففيم كانت تهمنى الحياة ؟

— ولكن وعدا شفويا لا يمكن ان يربطك بهذا الشقى .

— اننى وعدته بشرفى .

وبدا انه يحاول ان يفهم ما اعنيه وقال : وعدته بشرفك ! وما قيمة هذا الوعد ؟ انكما لم تشربا من نفس الكاس . ولم تحطما معا خاتما أو غصنا من شجرة اسفندان .

— كلا .

— حسنا . ماذا تقول اذن ؟ .. وماذا يربطك ؟

اجبت : شرفى .

— لا ادرى معنى هذا ... لا شىء يربطك ببياسو . تعال معنا .

— لا استطيع يا اخى ، فاننى وعدت .

صاح فى حدة : كلا . انك لم تعد باى شىء .

ثم رفع صوته وقال : اختاه . انضمى الى وامنعى زوجك من مفارقتنا . انه يريد ان يعود الى معسكر الزنوج الذى خلعته منه بحجة انه وعد زعيمهم بياسو ان يموت .

صحت به : ما هذا الذى فعلت ؟

ولكن الشر كان قد وقع ولم يعد فى وسعى اخفاء الحقيقة ، وارتمت مارى بين ذراعى وهى تطلق صيحة يأس ، وتعلقت بيديها بعنقى وقد خارت قواها وكادت تفقد انفاسها .

وتمتمت تقول فى مشـــقة : اوه .. ماذا يقول يا ليوبولد .. اصحيح انه لا يخدعنى وانك فى تلك اللحظة التى اجتمعنا فيها تريد ان تتركنى ، وأن تتركنى لكى تموت ؟ اجبنى حالا والا مت . لا حق لك فى التفريط فى حياتى لأنه لا يجب ان تفرط فى حياتى انا ، ولا اخالك تريد الا تفترق عنى والا ترانى بعد ذلك ابدا .

قلت : لا تصدقيه يا مارى . صحيح اننى سأفارقك لانه لابد من ذلك ولكننا سنلتقى فى مكان آخر .

قالت فى فزع : فى مكان آخر ... اين ؟

لم استطع ان اكذب على هذا الملاك فقلت : فى السماء .

اغمى عليها ثانية ولكن من الألم هذه المرة ، وكان الوقت يمر ، وقد استقر منى العـــــزم فألقيتها بين ذراعى بوج جارجال الذى اغرورقت عيناه بالدموع وقال :

ـ اما من شيء يمكن ان يمنعك اذن ؟ لن ازيد شيئا على ما تراه . ولكن كيف يمكنك ان تقاوم ماريا ؟ اننى لأضحى بالعالم كله فى سبيلها ، من اجل كلمة واحدة ما قالته لك ، فكيف لا تريد ان تضحى لها بموتك ؟

اجبت : انه الشرف . الوداع يا بوج جارجال . الوداع يا اخى . اننى أوصى بها لك .

اخذ يدى . كان قد غرق فى لجة من الافكار ويبدو غير مصغ الى تقريبا وقال : يوجد فى معسكر البيض واجـــد من اقاربك يا اخى ، سأسلمه ماريا لاننى لا استطيع قبول وصيتك .

واشار الى صخرة فوق القمة التى تهيمن على المكان وقال :

ـ اترى هذه الصخرة ؟ عندما تظهر فوقها الاشارة التى تدل على موتك فان نبأ موتى لن يلبث ان يطير فى الارجاء .. الوداع .. الوداع .

وعانقته دون ان اتوقف عند المعنى المجهول لهـــذه الـكلمات الاخيرة . وطبعت قبلة على جبين مارى الشاحب ، وكانت قد بدات تفيق نتيجة لعناية مربيتها بها . وفررت مسرعا خوفا من أن تفقدنى نظرتها الاولى وزفرتها الاولى كل قواى .

— ٤٨ —

فررت وتوغلت فى الغابة العميقة متتبعا الاثر الذى تركناه دون ان اجرؤ على القاء نظرة خلفى ورحت اجرى دون هوادة خلال التلال والسهول ، كما لو اننى كنت اريد التغلب على الافكار التى راحت تلح على حتى بدا لى معسكر بياسو ، وعندئذ توقفت ، فقد بلغت المرحلة الاخيرة من طريقى ومن حيـــاتى نفسها . وضعضع التعب والانفعال قواى فاســـتندت الى شجرة حتى لا اقع ، وسرحت ببصرى فى الوادى الذى يمتد امامى .

حسبت حتى ذلك الوقت اننى تجرعت كل كئوس المرارة والحقد، ولكننى لم اكن قد عرفت بعد اشد المصـــائب قسوة وايلاما ، اى اضطرارى بقوة ادبية اقوى من قوة الاحداث الى التخلى طواعية عن السعادة وعن الحياة وهما ملك بنانى . لم اكن احفل بالحياة قبل ذلك ببضع ساعات ، فاننى لم اكن اعيش لان اليأس المطبق هو ضرب من الموت ، ولكننى نجوت من هـــذا اليأس واعيــدت مارى الى ، وبعث هنائى الميت من جديد ، اذا جاز لى هذا القول ، وماضى اصبح مستقبلى ، وبسطت لى الحياة ذراعيها اخيرا ، حياة كلهـا شباب وحب وسعادة . كنت استطيع ان ابدا هذه الحياة الجديدة ، وكل شىء كان يدعونى اليها . لم تكن هناك اية عقبة مادية ولا اية عراقيل ظاهرة . كنت حرا وسعيدا ، ومع ذلك كان لابد لى من الموت ، والموت شىء تافه بالنسبة لرجل يائس تجمدت مشاعره لفرط الالم ، ولكن يده موجعة وباردة عندما تقع على قلب متفتح

تدفئه مباهج الحياة . احسست بكل هذه المشاعر ، فقد خرجت لمجرد لحظة من القبر ، وسكرت فى هذه اللحظة القصيرة باجمل ما تحت السماء وهو الحب والوفاء والحرية . ولكن تعين على فجاة ان اهبط الى ذلك القبر من جديد .

— ٤٩ —

عندما مرت حسرة الندم استولى على نوع من الغضب وتغلغلت فى الوادى فى خطوات كبيرة فى حاجتى لتقصير المدة ، وتقدمت الى المراكز الاولى لمعسكر الزنوج . وبدت عليهم الدهشة ولم يصدقوا انفسهم ورفضوا ان ياخذونى ، والعجيب اننى اضطررت التوسل اليهم . واخيرا اخذنى اثنان منهم وساقانى الى حيث بياسو .

دخلت مغارة الرئيس . كان عاكفا على بعض أدوات التعذيب ، يحاول ادارة لوالبها . وعندما سمع خطوات حارسيه وهما يدخلانى حول راسه . ولم تبد عليه الدهشة حين وقع بصره على ، وقال وهو يشير الى ادوات التعذيب :

— هل ترى ؟

لزمت الهدوء ، فقد كنت أعرف قسوة « بطل الانسانية » وعقدت العزم على احتمال كل شىء دون اظهار اى الم .

وعاد يقول مزمجرا : اليس صحيحا ان ليجورى كان سعيدا لانه مات مشنوقا ولم يعذب .

نظرت اليه فى برود وازدراء ولم انطق . وعندئذ قال لاحد مساعديه :

— قل لنيافة الكاهن ان ياتى .

وبقينا لحظة صامتين ، ينظر كل منا الى الآخر . كنت انظر اليه . اما هو فكان يراقبنى . ودخل ريجو فى هذه اللحظة وهو بادى الاضطراب وتحدث اليه . وقال بياسو فى هدوء :

– فليجتمع كل رؤساء الجيش .

وبعد ربع ساعة كان كل الرؤساء ، بثيابهم المختلفة ، وقوفا امام المغارة . ونهض بياسو وقال :

– اسمعوا يا اصدقائى . ان البيض ينوون الهجوم علينا غدا عند بزوغ الفجر ، ومكاننا سيىء ويجب علينا مغادرته . فلنبدأ بالسير جميعا عند مغيب الشمس ولنمض الى الحدود الاسبانية . ستكون انت فى المقدمة يا ماكايا وعليك ان تنظم الصفوف الامامية برجالك. اما انت يا باردريجان فدمر قطع المدفعية التى استولينا عليها من برالاتو فانها لن تستطيع ان تفيدنا فى التلال ، وعلى رجال لاكروا أن يتبعوا جنود ماكايا .

وبعد ان اصدر بياسو اوامره بالسير استطرد يقول : واذا قام السحرة او الساحرات باية ضجة فاننى ساعهد بهم الى جلاد الجيش، واذا بقى بعض الاسرى فاذبحوهم . اعدوا بنادقكم وسمموا سهامكم والقوا ثلاثة اطنان من الزرنيخ فى المنبع الذى يستقى منه الجنود . سيظن المستعمرون انه سكر وسيشربون دون اى حذر . سدوا كل الطرق بالاحجار الكبيرة ، واحرقوا الغابات .

« اما انت ياريجو فابق معنا . اما زنوج المورن روج فيسيرون فى المؤخرة ، ولا تدعهم يخلون المنطقة الا مع طلوع الشمس .

وانحنى نحو ريجو واردف فى صوت خافت : انهم زنوج بوج جارجال ، واذا كان لابد من موتهم فليكن وليمت زعيمهم .

وعاد يقول وهو يعتدل : يمكنكم ان تنصرفوا الآن . وسيأتيكم كاندى باوامرى .

وقال ريجو بعد ان انصرف الزعماء : ايها القائد . يجب ارسال رسالة جان فرانسوا . ان موقفنا فى غاية السوء وقد توقف هذه الرسالة البيض .

اسرع بياسو واخرج الرسالة من جيبه وهو يقول : لقد ذكرتنى

بها . ولكن بها اغلاط لغوية كثيرة تدعو الى الضحك .

وعرض على الرسالة وهو يقــول : اسمع . هل تريد انقــاذ حياتك ؟ ان كرمى يسالك مرة اخرى ان تتخلى عن عنادك . ساعدنى فى اعادة صياغة هذه الرسالة . سامل عليك افكارى فتصوغها فى لغة سليمة .

هززت راسى نفيا فقال وقد عيل صبره : هل ترفض ؟

اجبت : نعم .

عاد يلح قائلا : فكر جيدا .

وبدا يحاول ان يلفت بصرى الى ادوات التعذيب التى كان يلهو بها . ولكننى قلت :

ـ اننى ارفض لاننى فكرت جيدا . يبدو لى انك تخشى على نفسك وعلى رجالك وتعتمد على رسالتك للجمعية لتاخير انتقام البيض ، وانا لا اريد حياتى اذا كانت سببا فى انقـــاذ حياتك ، فابدا بتعذيبى .

قال بياسو وهو يركل آلة التعذيب بقدمه : آه . آه . يبدو لى انك قد اعتدت التعذيب . ويسئونى هذا . ولكن لا وقت لى لكى اسومك العذاب فان هذا الموقع شديد الخطر ويجب ان نغادره باسرع وقت . آه . انك ترفض ان تكون سكرتيرا لى . والحق انك على حق ، فما كنت لادعك على قيد الحياة بعد ذلك اذ لا يجب ان يعيش احد يعرف سرا من اسرار بياسو ، ثم اننى وعدت الكاهن بان اقدمك اليه لكى تموت على يديه يا عزيزى .

وتحول الى الكاهن ، وكان قد دخل فى هذه اللحظة ، وقال : ايها الاب الطيب ، هل رجالك مستعدون ؟

اوما الكاهن بالايجاب . وعاد بياسو يقول : هل جمعتهم من رجال المورن روج ، فهم الوحيدون فى الجيش الذين لا يرغمهم شىء على التحرك بعد .

اوما الكاهن بالايجاب للمرة الثانية . واشار بياسو عندئذ باصبعه

الى العلم الاسود الذى كنت قد لحظته قبل ذلك والموضوع فى ركن المغارة وقال :

ـ هل ترى هذا العلم ؟ انه هو الذى سينبىء قومك بنهاية اجلك. وساكون قد غادرت المعسكر عندئذ . وبهذه المناسبة ، انك تجولت فى السهول اليوم ، فكيف وجدتها ؟

اجبت فى برود : رايت اشجارا كثيرة تكفى لشنقك انت وجميع رجالك .

قال وهو يحاول الابتسام : حسنا . هناك مكان لم تره بعد . سيمضى الكاهن به اليك . الوداع ايها النقيب الشاب وتحياتى الى ليجورى .

وحيانى وهو يضحك تلك الضحكة التى ذكرتنى بفحيح الثعبان المجرس ، ثم اتى باشارة واولانى ظهره ، وساقنى الزنوج .

ورافقنا الكاهن ومسبحته فى يده .

ـ ٥٠ ـ

مشيت بينهم دون ان ابدى اية مقاومة ، وصحيح انها ما كانت لتجدينى شيئا ، فقد كنا نصعد قمة جبل غرب المغارة حيث استرحنا لحظة . وهناك القيت نظرة اخيرة على الشمس الغاربة التى لا يجب ان تشرق على ، ونهض حراس وتبعتهم وهبطنا واديا صغيرا ما كان الا ليفتننى بجماله وروعته فى وقت آخر ، يخترقه نهر بعرضه ويكسب ارضه رطوبة خصبة . كان هذا النهـــر يصب فى نهاية الوادى ، فى احدى هذه البحيرات الزرقاء التى تنتشر فى التلال . وكم من مرة جلست على ضفاف هذه البحيرات واطلقت لاحلامى العنان ، فى تلك الساعة التى تكتسب السماء فيها تلك الحمرة الجميلة اثناء مغيب الشمس ، امتع العين بما يحيط بى من اشجار النخيل واشـــجار الدلب ذات الزهور الكبيرة واشجار المنفوليا

بكئوسها العريضة ، واشجار الابنوس والاعشاب المتسلقة التى تخفى عن العيون جوانب الصخور السمراء الفريبة ، وترتفع من كل نقاط هذه الارض العذراء رائحة زكية بدائية كتلك التى لابد قد استنشقها اول رجل مع اولى زهور الجنة الارضية .

هذا ونحن نمشى بطول الطـــريق الممهد على شواطىء النهر . ودهشت حين رايت ان هذا الطريق يؤدى فجاة الى اسفل صخرة منحدرة لحظت بعدها فتحة على هيئة القوس يجرى النهر خلالها . وانبعث من داخل هذا القوس صوت اصم ورياح شديدة هوجاء ، وانعطف الزنوج الى اليسار خلال طريق وعر عسير بدا ان مياه نهر جف قد حفرته منذ وقت طويل . واعترضتنا قبة تغطى الاعشاب والاشواك البرية نصفها ، وسمعت تحت هذه القبة صوتا اشبه بذلك الصوت الذى انبعث داخل القوس . وساقنى الزنوج اليها ، وفى اللحظة التى خطوت فيها اول خطوة فى هذا النفق اقترب الساحر منى وقال فى صوت غريب :

ـ اليك ما اتنبأ به لك الآن . واحد منا نحن الاثنين سيخرج من هذه القبة ويعود الى هذا الطريق .

وانفت من الرد عليه . ومشينا فى الظلام . وازداد الصوت حدة وعنفا ، ولم نعد نسمع صوت خطواتنا ، وادركت انه يصـــدر من شلال ، ولم اخطىء .

وبعد مسيرة عشر دقائق فى الظلام ، بلغنا ارضا منبسطة كونتها الطبيعة فى جوف الجبل . وكان اكبر جزء من تلك البقعة المسطحة اشبه بنصف دائرة يغطيها النهـــر الذى يتفجر من عروق الجبل بصوت مدو ، فى اعلاها قبة مكسوة باللبلاب الاصفر ، وكان ضوء النهار . يتسرب من هذه القبة ، واشعة الشمس الذهبية التى توشك على المغيب . وفى الناحية الشمالية من هذه البقعة يختفى النهر فى هاوية عميقة . كان الضوء الخفيف الذى يتسرب من سطح القبة يبدو كأنه يطفو فى جوفها دون ان يغرق ، وعلى حافة الهاوية

تنحنى شجرة عتيقة تختلط اغصانها بزبد التلال ، ويخترق جذعها المعقد الصخرة على مسافة قدم او قدمين فوق الشاطىء . كانت هذه الشجرة على هذه الصورة تفوص بهامتها وجذعها فى النهر فى نفس الوقت ، ويتدلى غصن منهـــا فى الهاوية كما لو كان ذراعا معروقا . وكانت الشجرة نفسها جرداء لا ترى فيها ورقة واحدة ، بحيث لم يكن من الممكن معرفة نوعها . وكان لهـــا منظر غريب ، والرطوبة التى تغمر جذورها هى وحدها التى تمنعها من الموت ، فى حين ان عنف الشلال كان ينتزع منها بطريقة متعاقبة اغصانها الجديدة ويرغمها على الاحتفاظ بنفس الاغصان الى الابد .

ـ ٥١ ـ

وقف الزنوج فى ذلك المـكان ، ورايت عنـدئذ انه لابد لى من الموت .

وعندئذ ، وبجوار هذه الهاوية التى ساهوى اليها طواعية شيئا ما عادت الى مخيلتى صورة السعادة التى تخليت عنها منذ ساعات قليلة ، وهاجمتنى فى حسرة وندم تقريبا ، وكان كل توسل للابقاء على حياتى غير جدير بى ، ومع ذلك فلم يسعنى الا ان اتنهد واقول :

ـ ايها الاصدقاء ، هل تعرفون ان من المحزن ان يموت المرء وهو فى العشرين من عمره وهو يتقد قوة وحياة ويحب ويترك خلفه محبوبته تبكى حتى تنطفىء الجذوة من عينيها ؟

ردت على قولى هذا ضحكة مخيفة . كانت ضحكة الساحر . واقترب منى ذلك القزم الخبيث الغامض وقال :

ـ ها ، ها ... هل تتحسر على الحياة الآن ؟ .. كان خوفى الوحيد هو الا تهاب الموت .

وخيل لى مرة اخرى اننى اعرف صاحب هذا الصـوت وهـذه الضحكة فصحت :

ـ من انت ايها الشقى ؟

اجابنى فى صوت رهيب : ستعرف ذلك .

ثم أزاح عن صدره الشمس الفضية التى تحجبه وقال : انظر .

انحنيت فوقه . كان هناك اسم محفور على صـــدره بحروف بيضاء بغيضة لا يمكن محوها اذ كانت مطبوعة على صدره بحديد محمى ، كما يفعل الاسياد بعبيدهم . وكان الاسم هو لقب عمى ولقب أسرتى وهو : دوفرنى . وعقدت الدهشة لسانى .

وسألنى الساحر : حسنا : ليوبولد دوفرنى .. هل عرفتنى من اسمك .

دهشت وانا اسمع هذا الرجل ينطق باسمى ، وقلت وانا احاول ان اجمع ذكرياتى :

ـ كلا . هذا الاسم لم يكتب ابدا الا على صدر المهرج . وقد مات القزم المسكين ، ثم انه كان وفيا مخلصا لنا . لا يمكن ان تكون انت هابيبراه .

صاح فى صوت مخيف : بل انا هابيبراه .

ورفع القناع عن وجهه الدميم ، ولكن مرحه العادى الذى عرفته عنه تبدل الى تعبير كله وعيـد وتهـديد . وصحت وقد ازدادت دهشتى :

ـ رحماك يا ربى .. هل يبعث كل الموتى ؟ .. انه هابيبراه ، مضحك عمى .

وضع القزم يده على خنجره وقال فى صـــوت اصم : مضحكه وقاتله .

تراجعت مرتاعا وقلت : قاتله ! .. ايها المجرم ! .. اهذا جزاء كرمه وعطفه ؟

ـ كرمه وعطفه ؟ .. بل قل اهاناته .

قلت : ماذا تقول ؟ .. انت الذى قتلته ايها الوغد ؟

اجاب وفى عينيه تعبير رهيب : نعم ، انا . اغمدت الخنجر فى

قلبه حتى مقبضه وهو نائم ولم يفق من نومه الا لكى يلفظ روحه . وهو يصيح : النجدة يا هابيبراه .

وقد انجدته .

اهاجتنى قصته البشعة ورباطة جاشه وصحت :

ــ أيها الوغد .. ايها القاتل الجبان .. انسيت المزايا والهبات التى لم يكن يمنحها لغيرك . كنت تأكل بجواره وتنام بجوار فراشه .

قاطعنى فجاة قائلا : كالكلب . ولكن ما عليك . اننى لم انسى هذه الميزات ولا تلك الهبات التى لم تكن فى حد ذاتها الا اهانات وازدراءات ، وقد انتقمت منه . وسانتقم منك الآن . هل تظن اننى، وانا خلاسى وقزم مشوه لست رجلا . آه . ان لى روحا ، وروحا اشد عمقا وقوة من تلك الروح التى سانتزعها من جسدك الشبيه بجسد فتاة . اننى اعطيت لعمك كما لو كنت قردا اقوم على تسليته ويمطرنى باحتقاراته . تقول انه كان يحبنى ؟ كان لى مكان فى قلبه ، بين قروده وببغائه ولكننى اخترت مكانا آخر ، بخنجرى .

ارتعدت فى حين استطرد القزم يقول :

ــ نعم . انا .. انا هو .. انظر الى وجها لوجه يا ليوبولد . انك ضحكت على بما فيه الكفاية . ويمكنك ان ترتعد الآن . آه . انك تذكرنى بذلك التفضيل المخجل الذى كان عمك يؤثرنى به . واى تفضيل ؟ كنت اذا دخلت صالوناتكم قابلتنى آلاف الضحكات ، فان قامتى وجسمى المشوه وملامحى وثيابى المضحكة ، وكل العاهات المحزنة التى حبتنى بها الطبيعة . كان كل هذا يبعث على سخرية عمك المقيتة وعلى سخرية اصدقائه المقوتين . وانا لم اكن استطيع حتى ان أسكت ، فقد كان لابد لى ، ويا لغضبى ، ان امزج ضحكى بضحكاتهم التى كنت استثيرها . اجبنى . هل تعتقد ان مثل هذه التحقيرات كان يمكن ان تكون سببا لكى احتفظ له بالجميل والعرفان. الا تظن انها تعادل بؤس العبيد الآخرين والعمل المضنى المستمر ولفح الشمس ولذع الحديد وسياط المشرفين . الا تظن انها لا تكفى لاضرام

نار الحقد الدفين فى قلب الرجل . آه . لكم تألمت لأن فترة الانتقام كانت قصيرة ولأننى لم استطع ارد للمستبد العجوز كل الاهانات التى الحقها بى والتى لا استطيع نسيانها بعد مرور كل هذا الوقت . ويا لندمى لأنه لم يعرف قبل ان يموت مرارة الكبرياء الجريحة ويشعر بالآثار المحرقة التى تخلفها دموع العار والغضب على وجه رسمت عليه الطبيعة ضحكة دائمة . ويا لندمى لأنه لم يعرف اليد التى طعنته تلك الطعنة القاتلة ، فقـــد مات من غير أن يعرفنى وخدع غضبى انتقامى . ولكن انتقامى سيكون كاملا هذه المرة على الاقل ولعلك ترى ذلك ... وصحيح انك تكاد لا تعرفنى فى هذا اليوم الجديد الذى يظهرنى لك ، فانت لم ترنى ابدا الاضاحكا مرحا . ولكن الآن حيث لا يمنع روحى اى شىء لكى تظهـــر فى عينى فاننى لا اشبه نفسى . لم تكن تعرف الا قناعى ، واليك الآن وجهى .

كان وجها مخيفا بشعا وصحت :

ـ ايها الوحش . انت واهم فما زالت بشاعة وجهك وقسوة قلبك تدل على ما فيك من تهريج وجنون .

قاطعنى هابيبراه قائلا : لا تتكلم عن البشاعة .. وتذكر قسوة عمك .

صحت محنقا : ايها الوغد . اذا كان قاسيا فقد كان ذلك بسببك . انك ترثى لمصير العبيد المساكين ولكن اذا كان ما تقول صحيحا فلماذا كنت تنتهز ضعف سيدك وتدفعه الى القسوة باخوانك ولا تنتهز صداقته وحبه لك لكى تخفف من مصائبهم ؟

ـ ما كان ذلك الا ليثير استيائى . اامنع انا رجلا ابيض من ان يدنس نفسه بالانغماس فى القسوة والفظاعة ؟ .. كلا ، كلا . كنت ادفعه على العكس لكى يزداد طغيانا ويقسو على عبيده اكثر واكثر لأن ذلك كان يعجل بساعة الانتقام . اننى بتظاهرى بالامعان فى اساءة اخوانى كنت اخدمهم .

تملكتنى الحيرة ازاء هذه التركيبة الغريبة من البغضاء واستطرد القزم :

ـ حسنا . اترى اننى احسنت التدبير والتنفيذ ؟ .. ما رايك فى المهرج هابيبراه ؟ .. ما رايك فى مجنون عمك ؟

اجبت : اتمم ما بداته . اقتلنى واسرع .

راح يمشى جيئة وذهابا فوق البقعة المنبسطة وهو يدعك يديه ويقول :

ـ واذا راق لى الا اسرع ؟ .. واذا طاب لى ان استمتع بعذابك ؟ ان بياسو كان مدينا لى بنصيبى فى الغنيمة التى سلبناها اخيرا ، وعندما رايتك فى معسكر السود لم اطلب منه غير حياتك ، وقد منحنى اياها طواعية ، والآن اصبحت لى انا ويروق لى ان الهو بها . سوف القى بك فى هذه الهاوية بعد قليل فاطمئن . ولكن يجب ان اقول لك قبل ذلك اننى اكتشفت مخبأ زوجتك ، وقد اوعزت الى بياسو اليوم ان يحرق الغـابة . ولا ريب انه قد بدا بذلك الآن . وهكذا ابيدت اسرتك ، فقد مات عمك بالحديد وستموت انت فى الماء وستموت مارى فى النار .

صحت : ايها الوغد .. ايها الوغد .

واتيت بحركة لكى اهجم عليه ، ولكنه تحول الى الزنوج وقال :

ـ قيدوه اذن ... انه عجل بمنيته .

وبدا الزنوج يقيدوننى بالحبال التى اتوا بها معهم فى صمت . وفجأة خيل لى اننى اسمع نباح كلب من بعيد ، وحسبت اننى واهم ، وان الصوت انما هو صدى هدير الشلال .

وفرغ الزنوج من عملهم ، وقربونى من الهـاوية التى يجب ان تبتلعنى . وعقد القزم ذراعيه فوق صدره ونظر الى وهو يبتسم ابتسامة انتصار . ورفعت عينى نحو الفتحة تهربا من منظره البشع ولكى انظر الى السماء . وفى هذه اللحظة سمعت النباح ، وكان اشد واقوى . وظهرت راس راسك الضخمة فى الفتحة فارتعدت فى حين صاح القزم فى صوت حاد :

ـ هيا ... القوا به .

وكان السود لم يفطنوا الى نباح الكلب وهموا بالقائى فى الهاوية .

ـ ٥٢ ـ

صاح صوت جهورى يقول : ايها الرفاق .

تحول الجميع . كان بوج جارجال يقف على حافة الفتحة ترفرف على راسه ريشة حمراء . وعاد يقول :

ــ ايها الرفاق !

واردف يقول اذ رآهم ينظرون اليه : انا بوج جارجال .

ضرب السود جباههم بالارض وهم يصيحون صيحات لم أستطع تميزها وصاح بوج جارجال :

ــ فكوا قيود الاسير .

وهنا بدا ان القزم قد افاق من الذهول الذى اصابه من ظهور بوج جارجال المفاجىء فاوقف فجاة سواعد السود الذين يهمون بقطع قيودى وهو يصيح :

ــ كيف هذا ؟ . . من الذى يجرؤ على اصدار اوامره هنا ؟

ثم تحول الى بوج جارجال وقال : ماذا اتيت تفعل هنا يا زعيم المورن روج ؟

اجاب بوج جارجال : جئت اصدر اوامرى لاخوانى .

قال القزم فى غيظ مكتوم : صحيح انهم سود من قوم المورن روج .

ثم اردف يقول فى صوت مرتفع : ولكن باى حق تريد التصرف فى أسيرى ؟

اجابه الزعيم : انا بوج جارجال .

ضرب السود الارض بجباههم فى حين عاد هابيبراه يقول : لا يمكن لبوج جارجال ان ينقض ما وعد به بياسو . لقد منحنى بياسو الرجل الابيض واريد ان يموت وسيموت .

واردف يقول مخاطبا السود : اما انتم فاطيعونى ... القوا به فى الهاوية .

واستجابة لصوت الساحر القوى نهض السود وتقدموا نحوى خطوة ، وظننت ان ساعتى قد حانت . ولكن بوج جارجال صاح بهم :

ـ فكوا قيود الأسير .

وفكوا قيودى على الفور . وتساوت دهشتى بدهشة الساحر . واراد ان يرتمي علي ولكن السود أوقفوه . وعندئذ راح يطلق اللعنات والتهديدات فقال :

ـ كيف هذا ؟ اترفضون اطاعتى أيها الاشرار . اتنكرون صوتى . لماذا اضعت وقتى فى الاستماع الى هذا الملعون ؟ كان يجب ان القى به الى الاسماك على الفور ، لاننى اردت ان يكون انتقامى كاملا هاأنذا افقده . آه ، ايها الشياطين الملاعين . اسمعونى انتم الآخرون ... اذا لم تطيعونى وتلقوا بهذا الابيض الشرير فى النهر فاننى سالعنكم ... ستشيب شعوركم ، وستفقدو سيقانكم وسواعدكم كالاغصان ، وستموتون شر ميتة . وبعد موتكم ستظل ارواحكم هائمة لا تعرف لها مستقرا ابدا .

كان لهذا المشهد فى نفسى اثر غريب .. الوحيد من سلالتى فى هذا النفق الرطب الاسود يحيط بى هؤلاء الزنوج كالشياطين ، واقفا على حافة هاوية لاقرار لها . تارة يهددنى هذا القزم الدميم والساحر المشوه فى هذا اليوم الشاحب الذى لا يكاد نوره يبين ثوبه المخطط وطاقيته المدببة ، وتارة اخرى يدافع عنى ذلك الاسود العملاق الذى ظهر فجاة من تلك الفتحة التى تتسرب منها اشعة الشمس الاخيرة ، وخيل لى اننى اقف على ابواب الجحيم واننى انتظر الموت او النجاة واشهد احدى هذه المعارك المستمرة بين ملاكى الحارس وشيطانى الشرير .

وبدا ان السود قد تولاهم الذعر والفزع من لعنات الساحر ، واراد هذا الاخير ان ينتهز فرصة ترددهم فصاح :

ـ اريد ان يموت الابيض فاطيعونى والقوا به فى النهر .

ولكن بوج جارجال رد عليه فى قوة وحزم :

ـ بل سيعيش . انا بوج جارجال . كان ابى ملكا على بلاد كاكونجو ، وكان يصدر احكامه العادلة على عتبة داره .

خر الزنوج ساجدين من جديد . واستطرد بوج جارجال :

ـ اخوانى . اذهبوا وقولوا لبياسو الا ينشر العلم الاسود الذى يجب ان ينبىء البيض بموت هذا الاسير لان هذا الاسير انقذ حياة بوج جارجال وبوج جارجال يريده ان يعيش .

نهضوا واقفين والقى بوج جارجال بريشته الحمراء بينهم . وعقد رئيس السود ذراعيه فوق صدره ثم التقط الريشة فى احترام ، وخرجوا بعد ذلك دون ان ينطقوا بكلمة . واختفى الساحر فى ظلمات النفق .

لن احاول ان اصف لكم ايها السادة الموقف الذى وجدت نفسى فيه . وحدقت بعينى المبتلتين فى بييرو . وكان هو يتفرس فى وفى عينيه تعبير غريب من الشكر والكبرياء . واخيرا قال :

ـ الحمد لله . لقد انتهى كل شىء يا اخى ، فعد من حيث اتيت . سوف تجدنى فى الوادى .

واشار الى بيده وانصرف .

ـ ٥٣ ـ

تعجلت المضى الى ذلك الموعد لأعرف الظرف السعيد الذى ساق منقذى الى فى الوقت المناسب وتاهبت للخروج من المغارة المخيفة ، ولكن كانت لا تزال تنتظرنى اخطار جديدة .

ففى اللحظة التى اتجهت فيها نحو النفق اعترضنى عائق غير متوقع وسد على المدخل . وكان هو هابيبراه بالذات فان القزم الحقود لم يتبع الزنوج كما ظننت وانما اختفى خلف صخرة ينتظر اللحظة المناسبة لانتقامه . وجاءت هذه اللحظة وخرج القزم امامى فجاة وضحك . كنت وحدى واعزل ، وكان فى يده خنجر يلمع . وعندما وقع بصرى عليه تراجعت رغما عنى .

– آه . آه . اظننت انك تستطيع الافلات منى ؟ ولكن المجنون اقل منك جنونا . انك وقعت فى يدى ولن ادعك تنتظر هذه المرة . ولن ينتظر صديقك بوج جارجال عبثا ، فستذهب الى الموعد الذى ضربه لك فى الوادى ، ولكن امواج النهر هى التى ستتكفل بارسالك اليه .

وفيما هو يتكلم هكذا اندفع نحوى شاهرا خنجره ، فقلت وانا ارتد الى الخلف .

– ايها الوحش . لم تكن منذ لحظات اكثر من جلاد اما الآن فانت قاتل .

اجابنى وهو يكشر عن اسنانه : اننى انتقم لنفسى .

كنت اقف فى هذه اللحظة وحدى على حافة الهاوية . وهجم على فجأة لكى يلقى بى فيها بطعنة من خنجره . ولكننى تجنبت الهجوم ، ففقد توازنه وانزلق فوق الطحلب اللزج الذى يكسو الصخور وتدحرج فوق المنحدر الذى تهدر الامواج تحته .

وصاح مزمجرا : يا للشياطين !

ووقع فى الهاوية .

وسبق ان قلت لكم ان جذع الشجرة العتيقة يخترق الصخرة فوق الشاطىء بقليل . والتقى القزم به فى سقطته والتفت جونلته بعقد الجذع فانتهز هذه الفرصة وتعلق به بقوة غريبة . وافلتت طاقيته المدببة من فوق راسه واضطر ان يتخلى عن خنجره . واختفت الطاقية باجراسها فى الهاوية مع الخنجر .

حاول هابيبراه وهو يتعلق بالهاوية ان يصعد الى الشاطىء ، ولكن ساعديه القصيرين لم يستطيعا بلوغ قمة المنحدر ، وراحت محاولاته لبلوغ سطح الصخرة اللزج والتى تشرف على الهاوية السحيقة عبثا . وصاح غيظا .

كانت اقل حركة من ناحيتى كافية لان تلقى به فى جوف الهاوية ، ولكن مثل هذا العمل كان جبنا ولم افكر فيه لحظة واحدة . ودهشه جمودى هذا . وحمدت الله على النجاة التى ارسلها الى بهذه الطريقة غير المرجوة وهممت بان ابتعد وان اتركه لمصيره المحتوم

عندما سمعت صوته يخرج فجأة من الهاوية فى توسل وانين :

ــ ايها السيد .. ايها السيد .. لا تنصرف بالله ! .. لا تدع شخصا مذنبا يموت وهو غير نادم وفى مقدورك ان تنقذه . وا اسفاه .. ان قواى توشك ان تخذلنى ، والغصن يوشك ان ينكسر وها هو ينحنى تحت ثقلى ، وثقل جسدى يجذبنى .

اقتربت من الهاوية متاثرا بصياحه ، والنور الباهت الذى كان يتسرب من الفتحة اضاء وجهه الدميم . وكانت سحنته قد تغيرت ورايت فيها رجاء وتوسلا لم يسبق ان رايتهما من قبل .

وعاد يقول وقد راى على وجهى امارات الشفقة والرثاء : مولاى ليوبولد . هل يعقل ان يرى انسان اخا له فى مثل هذا الموقف الفظيع وفى مقدوره ان ينقذه ولا يفعل ؟ .. بقليل من العون يمكنك انقاذى . وما هو كل شىء بالنسبة لى انما هو قليل بالنسبة لك . ارحمنى وانقذنى . ان عرفانى بجميلك سيعادل جرائمى .

قاطعته : لا تذكرنى بجرائمك ايها الشرير .

قال : انما اذكرها لاننى اكرهها يا سيدى . كن اكثر رحمة منى . اواه . ايتها السماء . ان الضعف يعترينى فابسط يدك بحق الأم التى انجبتك .

ويتعذر على ان اصف لكى كيف احدثت لهجته الحزينة التى تحفل بالخوف والذعر اكبر الاثر فى نفسى ، ونسيت كل شىء فلم يعد عدوا ولا خائنا ولا قاتلا . انما كان رجلا تعيسا يمكن لاقل جهد منى انقاذه من موت بشع . فقد كان يتوسل الى بصورة يرثى لها .

انحنيت وجثوت على حافة الشاطىء وقد اعتمدت باحدى يدى على جذع الشجرة الذى يتعلق به هابيبراه المسكين وبسطت له يدى الاخرى ... وما ان اصبحت فى متناوله حتى امسكها بكلتا يديه بقوة عجيبة ، وبدلا من ان يعاوننى لكى يصعد كما كنت اتوقع اذا به يحاول ان يجذبنى الى الهاوية معه . ولو ان جذع الشجرة لم يكن لى عونا قويا لانتزعتنى جذبته ولهويت الى الهاوية . وصحت به اقول :

ــ ايها الوغد .. ايها الوغد !

اجابنى وهو يضحك ضحكة رنانة جهنمية . اننى انتقم لنفسى .

آه . انك وقعت فى يدى اخيرا . كنت انت قد نجوت وكنت انا ضائعا ، وانت الذى ستهوى الآن طواعية فى الهاوية . وهذا عزائى ما دام موتى قد أصبح انتقامى . انك وقعت فى الشرك وسأصطحب معى رفيقا بشريا لنكون طعاما للأسماك .

قلت وانا ابذل جهدا كبيرا لكى اتشبث بجذع الشجرة : ايها الغادر .. اهكذا تكافئنى لاننى اردت أن انقذك من الموت ؟

أجاب : نعم . اننى أعرف اننى قد انجو معك ولكننى أوثر كثيرا ان تموت معى . اننى افضل بكثير موتك على حياتى . تعال .

وفى نفس اللحظة توترت يداه الخشنتان النحاسيتان على يدى فى قوة خارقة وومضت عيناه وعلا الزبد فمه ، وعادت اليه قواه التى تخلت عنه قبل ذلك بلحظة وقد تضاعفت بالغضب والانتقام . واعتمد بقدميه على جانب الصخرة العموديين وراح يتحرك كالفهد فوق الجذع الذى امتزج بثيابه التى حمته من السقوط ، محاولا ان يحطمه لكى يقع ويجرنى معه . وكان يتوقف بعض الوقت ثم يعاود محاولته من جديد وهو يضحك ضحكة شيطانية كانت تزيد وجهه دمامة . ولو أن أحدا رآه عندئذ لحسبه شيطانا يحاول ان يجر فريسته الى عالمه المظلم المخيف .

وكان من حسن حظى ان احدى ركبتى انحشرت فى احدى تجويفات الصخرة ، والتف ذراعى بالشجرة التى اعتمد عليها . ورحت أقاوم محاولات القزم بكل القوى التى يبعثها حب البقاء فى مثل هذه اللحظة . وكنت من وقت لآخر ارفع صدرى بمشقة كبيرة واصيح بملء قواى « بوج جارجال » ، ولكن هدير الشلال وبعد المسافة لم يتركا فى نفسى اى امل لكى يسمع صوتى .

ولم يكن القزم يتوقع منى كل هذه المقاومة فضاعف من قوته ومن محاولاته العنيفة . وبدأت افقد قواى على الرغم من ان هذه المقاومة لم تدم الا وقتا اقصر مما اخذته فى سردها عليكم ، واحسست بالشلل يتسرب الى ذراعى وبسحابة تغطى عينى وطنين يملأ اذنى وسمعت الجذع يطقطق ويوشك ان ينكسر ، والساحر يضحك وهو يوشك على السقوط ، وبدا لى ان الهاوية تصيح وهى تدنو منى .

ودفعنى الياس الى محاولة اخيرة ، فجمعت قواى الواهنة وصحت اقول مرة اخرى « بوج جارجال » . ورد على نباح راسك فحولت عينى . كان بوج جارجال وكلبه واقفين على حافة الفتحة ، ولا ادرى هل سمع صوتى او اذا كان القلق تملكه وعاد ورأى ما انا فيه من خطر .

وصاح بى : تمالك نفسك .

وخشى هابيبراه ان انجو فصاح بدوره وهو يتميز غيظا : بل تعال .

وجمع قواه لـكى يتغلب على ما بقى من قوتى ومقاومتى .

وفى هذه اللحظة كل ذراعى وافلتت اصابعى الجذع الذى كانت تتشبث به . وادركت ان امرى قدانتهى عندمااحسستبمن يمسكنى من خلف . كان راسك ، فعلى اشارة من سيده وثب من الفتحة الى الشاطىء وامسكنى بفمه من ثيابى بـكل قواه . وانقذتنى هـذه النجدة غير المتوقعة . وكان هابيبراه قد استنفد كل قواه فى محاولته الاخيرة . وجمعت قواى لكى انتزع يدى منه واضطرت اصابعه التى غلبها الخدر والتوتر الى ان تتخلى عنى أخيرا ، والجذع الذى تحمل كل هذه المحاولات انكسر تحت قدميه . وبينما كان راسك يجرنى الى الخلف بقوة هوى القزم الشرير فى الهاوية بين زبد الشلال المظلم وهو يرمينى بلعنة لم اسمعها وعادت معه فى الهاوية .

تلك كانت نهاية مهرج عمى .

— ٥٤ —

ضعضعنى هذا المشهد الرهيب الذى مر بى ، وهـذا النضـال الضارى وهذه النهاية المروعة . وخرجت من كل ذلك وقد خارت قواى ولم اعد اعى ما حولى . وافقت من ذهولى على صوت بوج جارجال وهو يقول لى :

— اى اخى .. عجل بالخروج من هنا . ان الشمس ستغيب بعد نصف ساعة . سأنتظرك هناك ، فاتبع راسك .

اعادت هذه الكلمات الرقيقة الامل والقوة والجراة الى نفسى فى وقت واحـــد فنهضت ، وانطلق الـكلب مسرعا فى النفق فتبعته يرشدنى نباحه فى الظلام . وبعد بضع دقائق رايت نور النهـــار امامى . وبلغنا اخيرا مدخل النفق فتنفست الصعداء وتذكرت وانا اخرج من تحت القبة الرطبة السوداء نبوءة القزم ونحن ندخلها : واحد منا سيعود من هذا الطريق .

لقد اخطأ فى توقعاته ولكن نبوءته تحققت .

— ٥٥ —

كان بوج جارجال ينتظرنى فى الوادى فارتميت بين ذراعيه ، وتملكنى الكرب وانا اريد ان اساله الف سؤال ولا استطيع النطق بـكلمة واحدة .

قال لى : اسمع ... ان زوجتك ، اختى فى امان . ذهبت بها الى معسكر البيض وعهـدت بها الى قريب لك يقـود المراكز الامامية . واردت ان اسلم نفسى كاسير خـــوفا من ان يقتلوا بدلا منى الاشخاص العشرة الذين يضمنون عودتى . ونصحنى قريبك ان اهرب وان احاول انقاذك من العذاب حيث انهم لن يعدموا الرجال العشرة الا اذا مت انت ، وهذا ما يجب ان يعلن عنه بياسو برفع العلم الاسود اعلى مكان من الجبل . وعندئذ اخذت اعدو ، وقادنى راسك واتيت فى الوقت المناسب واحمد الله فسوف تعيش انت واعيش انا .

وبسط لى يده واردف يقول : هل انت راض يا اخى ؟

ضممته الى صدرى مرة اخرى وتوسلت اليه الا يفارقنى وان يبقى معى بين البيض ووعدته برتبة فى الجيش الاستعمارى ، ولكنه قاطعنى وهو يقول فى غلظة :

— اخى ... اترانى اقترح عليك ان تلتحق بجيشنا .

الجمنى رده ولزمت الصمت . واردف هو يقول فى مرح :

— هلم بنا . امض سريعا لكى ترى زوجتك وتطمئنها .

ولمس قوله هذا الوتر الحساس فى نفسى فنهضت والدنيـــا

لا تسعنى لفرط سعادتى وانطلقنا . وكان يعرف الطريق فتقدمنى فى حين تبعنا راسك .

وهنا امسك دوفرنى عن الكلام ، والقى نظرة كئيبة حوله . كان جبينه يتفصد بالعرق . وغطى وجهه بيده ونظر راسك اليه فى قلق وقال :

ــ نعم . هكذا كنت تنظر الى .

وفى اللحظة التالية كان قد نهض وهو فى شدة الانفعال وخرج من الخيمة . ورافقه الرقيب والكلب .

ــ ٥٦ ــ

قال هنرى : اراهن اننا ندنو من الكارثة ، ويحزننى جدا ان يكون قد وقع لبوج جارجال شىء ، فقد كان رجلا ولا كل الرجال .

رفع باسكال عن شفتيه عنق زجاجة النبيذ وقال : وددت ، ولو مقابل عشر سلال من النبيذ ان ارى قشرة جوز الهند التى افرغها فى جوفه مرة واحدة .

وكان الفريد يعزف لحنا حالما على الجيتار فامسك لكى يقول : ان هذا الزنجى يثير اهتمامى كثيرا ، ولكننى لم اجرؤ على سؤال دوفرنى هل كان يعرف هو الآخر اغنية « انما انا المهرب » ؟

وعاد باسكال يقول : ان بياسو هذا رجل فريد . وان نبيذه لا يساوى شيئا ، ولكنه على الاقل رجل يعرف قدر الرجل الفرنسى . ولو اننى كنت اسيرة لاطلقت شاربى لكى يضع عليه بضعة قروش كما فعل ذلك النقيب البرتغالى فى مدينة جوا . اقول لكم ان دائنى اشد قسوة من بياسو هذا .

قال هنرى وهو يلقى حافظة نقوده لباسكال : وبهذه المناسبة ، اليك الدينارات الاربعة التى أدين بها لك .

نظر النقيب فى دهشة الى مدينه الكريم الذى كان فى مقدوره ان يقول بحق انه دائنه . واسرع هنرى يقول :

ــ ما رايكم ايها السادة فى القصة التى رواها لنا النقيب حتى الآن ؟

قال الفريد : الحق اننى لم استمع اليها باهتمام كبير . ولكننى اعترف لكم اننى كنت امل ان اسمع من شفتى دوفرنى الحالم شيئا اكثر اهمية ، ثم انها قصة غرامية نثرية ، وانا لا احب القصص الغرامية النثرية لاننى لا اعرف على اى لحن اشدو بها . صفوة القول ان قصة بوج جارجال تثير ضجرى فهى قصة طويلة .

قال باسكال : انت على صواب . هى حقا قصة طويلة ، ولو لم استعن بغليونى وزجاجتى لقضيت ليلة سيئة . ولاحظوا فوق ذلك ان فيها اشياء غير معقولة . فكيف نصدق مثلا ان ذلك القزم الساحر .. ما اسمه .. هابيتاه ؟ .. كيف نصدق انه لكى يغرق عدوه يرضى ان يغرق نفسه فى نفس الوقت .

قاطعه هنرى قائلا : وفى الماء بالذات . اما انا ، فان الذى اثار طربى فى قصة دوفرنى فهو ان ارى كلبه الاعرج يرفع راسه كلما نطق باسم بوج جارجال .

وسمعوا وقع خطوات تقترب فادركوا ان دوفرنى يعود . وسكتوا جميعا . واخذ دوفرنى يمشى بضع لحظات وهو عاقد ذراعيه فوق صدره . وكان ثاديه العجوز قد جلس مكانه وراح يرقبه خلسة متظاهرا بانه يلاطف راسك حتى لا يلحظ النقيب ارتباكه .

واستانف دوفرنى قصته اخيرا فقال :

ـ مشى راسك خلفنا . ولم تكن اشعة الشمس تنير اعلى صخرة بالوادى ولكن الضوء صبغ الصخرة فجاة ثم اختفى . وارتجف الاسود وضغط على يدى بشدة وهو يقول :

ـ اسمع !

فقد دوى الوادى صوت اصم اشبه بدوى المدفع ، وردد الوادى صداه . وقال الزنجى بصوت كئيب :

ـ هذه هى الاشارة !

واستطرد : هذا صوت مدفع ، اليس كذلك ؟

اومات بالايجاب . وفى وثبتين اثنتين كان قد اعتلى صخرة عالية . وتبعته . وعقد ذراعيه وابتسم فى حزن وقال :

ــ هل ترى ؟

ونظرت الى الناحية التى اشار اليها . ورايت فوق الصخرة التى اشار اليها اثناء حديثنا مع مارى ، وهى الوحيدة التى كانت اشعة الشمس لا تزال تنعكس عليها ، علما اسود .

وهنا سكت دوفرنى سكتة قصيرة ثم قال :

ــ وقد عرفت فيما بعد ان بياسو ، فى تعجله الرحيل وفى اعتقاده باننى ميت لا محالة امر برفع العلم الاسود قبل عودة فرقة الاعدام التى تصاحبنى .

وكان بوج جارجال لا يزال واقفا مكانه عاقدا ذراعيه فوق صدره وينظر الى العلم المشئوم . وفجاة تحول الى فى حدة ومشى بضع خطوات كانه يريد الهبوط من فوق الصخرة وقال :

ــ يا الهى ! .. يا الهى ! .. وزملائى المساكين .

ثم عاد الى وقال : هل سمعت صوت المدفع ؟

ولم اجب ، فعاد يقول :

ــ حسنا يا اخى ... هذه هى الاشـــارة ... انهم يسوقونهم الآن .

وهوت راسه فوق صدره ، وازداد دنوا منى ثم قال : عد الى زوجتك يا اخى ... سيقودك راسك .

ودندن باغنية افريقية ، وراح الـكلب يهز راسه ، وبدا انه يريد ان يمضى الى نقطة الوادى .

وتناول بوج جارجال يدى وحاول ان يبتسم : ولكن ابتسامته كانت نوعا من التشنج ، وصاح يقول فى صوت قوى : الوداع . واختفى بين الاشجار المحيطة بنا .

تسمرت مكانى كالمصعوق . وجعلنى القليل الذى حدث اتوجس كل شر .

واذ راى راسك سيده يختفى تقدم نحو حافة الصخرة وراح يهز راسه وهو ينبح نباحا حزينا شاكيا ثم عاد وهو يهز ذيله وقـد

تندرت عيناه الواسعتان ونظرا الى فى قلق ثم عاد الى المكان الذى انطلق منه سيده ونبح بضع مرات . وفهمته ، فقد احسست بنفس مخاوفه . وتقدمت بضع خطوات نحوه ، وعندئذ اسرع يعدو مقتفيا خطوات بوج جارجال . ولولا اننى كنت اجرى انا الآخر بكل قواى لما لحقت به فقد كان من الممكن ان افقد اثره لو لم يكن يتوقف ما بين آونة واخرى لكى يمكننى من اللحاق به . واجتزنا وديانا كثيرة وتلالا يغطيها غابات كثيفة واخيرا ..

وخبا صوت دوفرنى وارتسمت على وجهه امارات يأس شديد ، وتمكن اخيرا من النطق بهذه الكلمات :

ـ اكمل انت القصة يا ثاديه فاننى اشعر بان قوتى قد وهنت كما لو كنت امراة عجوزا .

ـ بعد اذنك ... ما دمت تريد يا سيدى النقيب .. يجب القول أيها السادة الضابط انه على الرغم من ان بوج جارجال المعروف باسم بييرو كان زنجيا عملاقا شهما وكريما شجاعا فاننى لم اكن اميل اليه كثيرا ، وهذا شىء لم اغفره لنفسى ابدا بحيث اننى عندما علمت ان معسكر بياسو ينوى ان يقتلك عند مغيب شمس اليوم التالى استولى على غضب شديد نحو ذلك الرجل المسكين وشعرت بسرور لا يوصف وانا اقول له انه سيعدم هو او عشرة من رجاله ردا على موتك . ولم ينطق باى كلمة فيما عدا انه هرب بعد ساعة ، بعد ان احدث ثقبا كبيرا فى سجنه و ...

ابدى دوفرنى بحركة تدل على فروغ صبره فقال ثاديه :

ـ ليكن ... عندما راينا العلم الاسود يرفرف فوق الجبل ، واذ راينا انه لم يعد ، وهو الامر الذى لم يدهشنا اطلقنا طلقة من المدفع كاشارة وامرت ان يساق الرجال العشرة الى مكان الاعدام ، ويبعد عن المعسكر بنحو ... ولكن هذا امر لا اهمية له ... وعندما بلغنا المكان المذكور فى مكانه . وفى هذه اللحظة رايت الزنجى العملاق آتيا من ناحية الغابة . وتهاوت يداى . وجاء الى وهو يلهث وقال :

ـ اننى اتيت فى الوقت المناسب . طاب يومك يا ثاديه .

نعم أيها السادة . لم ينطق بغير هذه الكلمات ومضى ففك قيود

مواطنيه . اما انا فوقفت مشدوها . ودارت عندئذ معركة كبيرة من المشاعر الكريمة بينه وبين السود كان يمكن ان تستمر طويلا ... لولا اننى انهيتها للأسف ، فأخذ مكان السود ... وفى هذه اللحظة وصل كلبه المسكين راسك وهجم على وانشب اظافره فى عنقى . وكان من الممكن ان يزهق روحى لولا ان بيرو أتى باشارة تركنى الكلب على اثرها . ومع ذلك فان بوج جارجال لم يستطع منعه من ان يرقد عند قدميه . وعندئذ ، ومعتقدا انك لقيت حتفك يا سيدى النقيب ... كنت محقا ... فصحت :

بسط الرقيب يده ونظر الى النقيب ولكنه لم يستطع النطق بالكلمة الاخيرة .

— وسقط بوج جارجال ... واصابت رصاصة كلبه فى قدمه وكسرتها . ومنذ ذلك الوقت ايها السادة الضباط (وهز الرقيب راسه فى اسى) منذ ذلك الوقت وهو اعرج . وسمعت انينا فى الغابة المجاورة فمضيت ناحيته . كانت رصاصة قد اصابتك فى اللحظة التى هممت فيها بالجرى لكى تنقذ الزنجى العملاق . نعم يا سيدى النقيب. كنت تئن وتبكى ، ولكنك كنت تندبه هو فقد مات بوج جارجال .

وامسك الرقيب عن الحديث . وعاد دوفرنى يقول فى صوت حزين : مات بوج جارجال !

واطرق ثاديه براسه الى الارض وقال : نعم . انه انقذ حياتى اما انا فقتلته .

الخاتمة

بما ان القارىء يطلب عادة تفسيرا نهائيا عن مصير كل الاشخاص الذين يهتم بهم فقد قمنا ببحث مستفيض عما حدث للنقيب ليوبولد دوفرنى والرقيب ثاديه والكلب راسك ، ولعلنا نذكر ان لحزن النقيب سببا مزدوجا وهو موت بوج جارجال المعروف باسم بييرو وموت حبيبته مارى التى نجت من حريق حصن جاليفيه ولقيت حتفها فى الحريق الذى دمر مدينة الكاب . اما النقيب نفسه فهـــذا ما اهتدينا اليه فيما يتعلق به .

فى غداة احدى المعارك الكبرى التى انتصرت فيها جيوش الجمهورية الفرنسية على جيوش اوروبا جلس اللواء المكلف بالقيادة العـامة لكتابة التقرير الذى يجب أن يرســـله ، استنادا الى مذكرات مساعديه ، الى الجمعية التأسيسية العامة ، عن النصر الذى احرزه جيشه بالامس .

وجاءه احد رجاله يقول له ان ممثلا عن الشعب يريد ان يتحدث اليه . وكان اللواء يمقت هذا النوع من الســفراء ذوى القبعات الحمراء الذين يوفدهم ساسة الثورة الفرنسية الى المعسكرات وذلك لاذلالهم وعزلهم من وظائفهم ، فهم فى الحقيقة دساسون مكلفون من الجلادين بالحط من الانتصارات ومن كبار الضباط ، ومع ذلك فقد كان من الخطر رفض زيارة اى واحد منهم خصوصا بعـد احراز النصر فى احدى المعارك . ولهذا أصدر اللواء بادخال المندوب .

وبعد ان هنا المندوب اللواء للانتصـــار الذى احرزته الجيوش الجمهورية اقترب منه وقال فى صوت خافت :

– ولكن ليس هذا كل شىء ايها المواطن الجنرال ، فلا تكفينا هزيمة الاعداء فى الخارج وانما لابد من ابادتهم فى الداخل .

اجابه الجنرال مشدوها : ماذا تقصد ؟

قال مندوب الجمعية التأسيسية الغامض : ان فى جيشك رجلا

يدعى ليوبولد دوفرنى ، وهو يقود الفرقة الثانية والثلاثين ، فهل تعرفه ايها الجنرال .

اجابه الجنرال : نعم . كنت اقرا تقريرا من القائد المساعد عن هذه الفرقة بالذات . ان قائدها نقيب ممتاز .

قال المندوب فى ترفع : كيف هذا ايها المواطن الجنرال . اتكون قد منحته رتبة اخرى ؟

— لا اخفى عليك ايها المواطن المندوب ان هـذه كانت نيتى فى الواقع .

صاح المندوب يقول فى حدة : ان النصر قد اعمى بصيرتك ايها الجنرال ، فحذار مما تفعل ومما تقول . اذا انت احتضنت ثعابين الشعب الاعداء فكن على حذر والا حطمك الشعب مع الثعابين . ان ليوبولد هذا ارستقراطى ، ومن اعداء الثورة ، من الملكيين اليعقوبيين ، وعدالة الشعب تنادى به ويجب أن تسلمه لى على الفور .

اجابه الجنرال فى برود : لا استطيع .

صاح المندوب وقد ازداد حدة : كيف هذا ؟ .. لا تستطيع ؟ الا تعلم ايها الجنرال انه لا حدود لسلطتى هنا . ان الجمهورية تأمرك وانت تقول انك لا تستطيع . اصغ الى . تسامحا منى نظير الانتصار الذى احرزته اريد ان اقرا عليك التقرير الذى جاءنى بخصوص هذا الدوفرنى والذى يجب ان ابعث به هو بالذات الى المدعى العام . وهو موجز من قائمة اسماء أرجو الا تضطرنى الى اضافة اسمك اليها .

« ليوبولد اوفرنى (بعد حذف حرف الدال الذى يشير الى نبل الاسم) النقيب بالفرقة الثانية والثلاثين ، متهم ، اولا ، بانه ذكر فى اجتماع لبعض المتآمرين قصة مزعومة مضادة للثورة من شانها تسخيف مبادىء المساواة والحرية وتمجيد الخرافة القديمة المعروفة باسم الملكية والدين . ثانيـا : بانه وصف مختلف الاحداث الاخيرة والشهيرة وخاصة تحرير زنوج سانتو دومينجو ، باوصاف يستنكرها كل من يساند الثورة . ثالثا : بانه يستخدم فى حديثه دائما كلمة « السيد » ولا يستخدم كلمة مواطن ابدا ، ورابعا واخيرا بانه تآمر علانية لقلب نظـام الحكم الجمهورى لصالح اليعقوبيين والملكيين ، وهو يستحق الموت .

« حسنا ايها الجنرال ، ما رايك فى كل هذا ؟ اما زلت تدافع

عن هذا الخائن ؟ وهل تتردد فى تسليم عدو الشعب لكى يلقى جزاءه ؟

اجابه اللواء فى وقار : ان عدو الشعب كما تدعوه ضحى بنفسه فى سبيل الشعب ، وسأرد على تقريرك بتقرير آخر منى انا فاسمع بدورك .

« ليوبولد دوفرنى ، النقيب بالفرقة الثانية والثلاثين تسبب فى الانتصار الاخير الذى احرزته قواتنا ، فقد اقام المتحالفون متراسا محكما كان لابد من تحطيمه ، وموت الباسل الذى يشن عليه الهجوم قبل غيره كان امرا مؤكدا . وقد ضحى الكابتن دوفرنى بنفسه فهجم على المعقل ولقى حتفه ولكننا انتصرنا . وقد عثرنا على الرقيب ثاديه ميتا بجواره ومعه كلب . ونحن نقترح على الجمعية التاسيسية الوطنية ان تشيد بالنقيب دوفرنى لانه ابلى بلاء حسنا فى سبيل وطنه .

واستطرد الجنرال يقول فى هدوء :

ـ ارايت ايها المندوب الى اختلاف مهمتينا ، فان كل واحد منا يرسل تقريرا الى الجمعية التاسيسية الوطنية . ونفس الاسم يوجد فى التقريرين ، فانت تقول انه خائن وانا اقول انه بطل ، وانت تقيم له المقصلة اما انا فاطلب ان يقام له نصبا تذكاريا ... لكل منا رايه . ولكن مما يدعو الى السرور والابتهاج ان هذا البطل قد افلت من تعذيبك فى معركة ، والحمد لله فان الذى كنت تريد ان تقتله قد مات ، ولم يسمعك .

استولى الغضب على المندوب وهو يرى مؤامراته تتبخر مع متآمره ، وتمتم يقول بين اسنانه :

ـ انه مات . يا للخسارة !

سمعه الجنرال فصاح ساخطا : ما زال فى جعبتك سهم اخير ايها المندوب . امض وابحث عن جسد النقيب دوفرنى بين حطام المعقل فمن يدرى ... لعل الأعداء تركوا راسه للمقصلة .

« تمت »

هـذه الروايـــة

تقع احداث هـذه الرواية فى جزيرة سانتو دومينجو ، احدى جزر الهنـد الغربية ، واكبرهـا بعد جزيرة كوبا ، وتعرف الآن باسم هايتى ، وكانت تعرف فى الوقت الذى اكتشـفها فيـه كريستوف كولومبس باسم هسبانيوله .

وفى الوقت الذى تبدأ فيه هذه الرواية كان الجزء الاكبر منها وتقع فى غرب الجـزيرة يحتله الفرنسيون ، أما الجـزء الشرقى فكان يقع تحت الاحتلال الاسبانى وكانت الثورة الفرنسية قد طبقت فى ذلك الحين مبادىء الحرية والمساواة ووافق المبيض على هذه المبادىء ولكنهم رفضوا منحها للسود .

وتحكى هذه القصـة الصراع الدامى بين البيض والسـود والحرب الضروس التى نشبت بينهم ، تتخللها قصة حب عظيم حب عبد اسود تتجلى فيه شهامة الاسود ورقته ونبل اخلاقه .